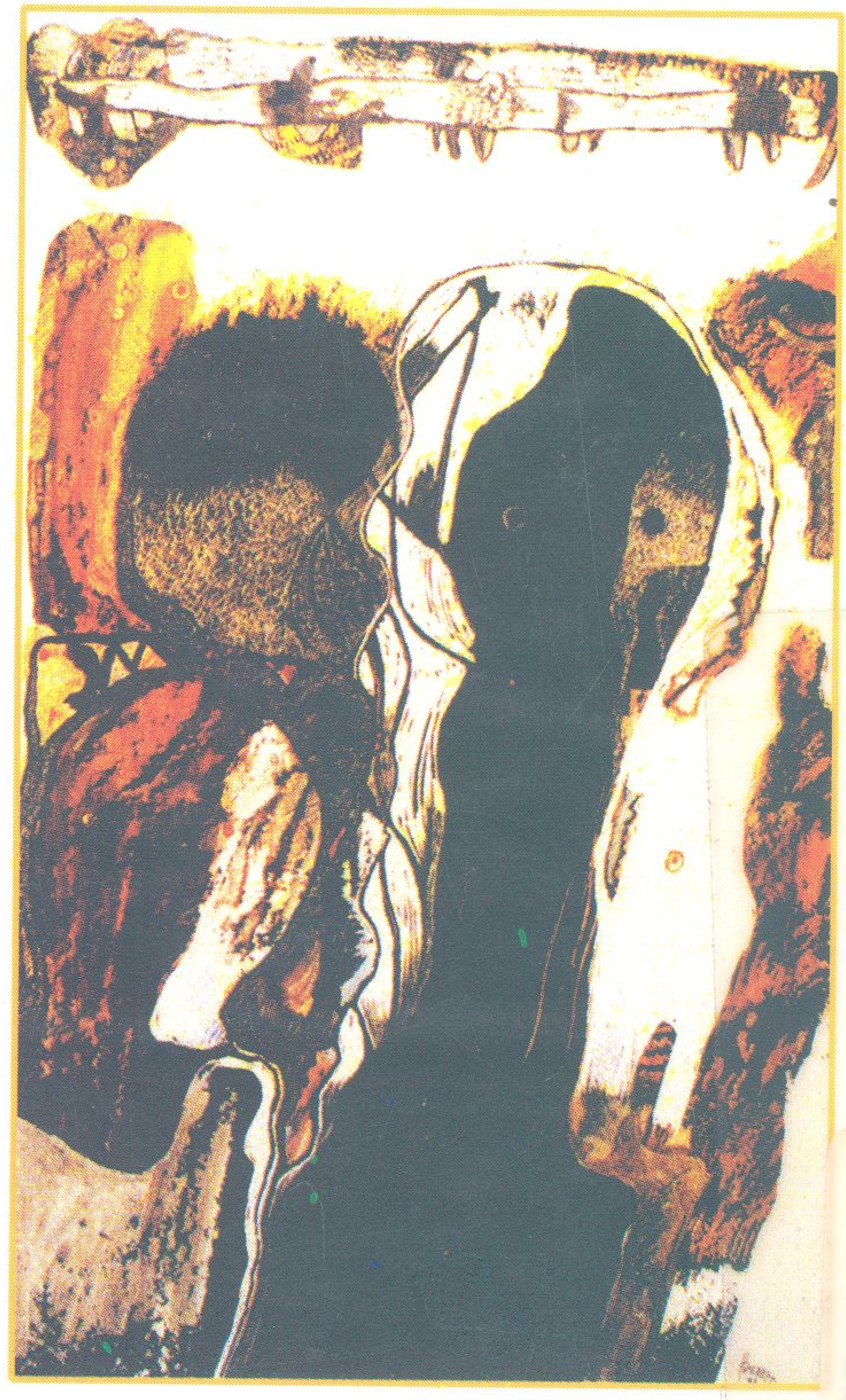
إدريس علي

وقائع غرق السفينة



قصص قصيرة



وقائع غرق السفينة

قصص

إدريس علي

لوحة الغلاف للفنان : حسان على

الطبعة العربية الثانية ١٩٩٩

رقم الإيداع ١٠٢٥٢ / ٩٩

الترقيم الدولى I.S.B.N 977-291-155-8



السلسلة الأدبية

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

المشرف العام

على السلسلة الأدبية

خيرى عبد الجواد

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : شريف على

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

إدريس علي

وقائع غرق السفينة

قصص



إهداء

إلى ..

قائد حركة التنوير فى الثقافة العربية المعاصرة ..

الدكتور / **جابر عصفور**

تقديراً وحبًا .

إدريس علي



استغاثة

إلى قبطان السفينة ..

نداء أخير من الركاب :

أدركنا يا سيدى ..

نحن نغرق .. نغرق ..

إدريس علي



وقائع غرق السفينة

متعبًا يئوب أبى ، لاهثًا يريح مؤخرته على حافة السرير ، متكئًا بيديه للخلف ، تاركًا قدميه المتورمتين لأمى تدعكهما بالماء الدافئ وهى تواسيه بصوتها الحنون .. لتزيل عنه آثار الهلاك اليومى ، يغادرنا ظهرًا ، ليعود فجر اليوم التالى :

- نفسى أرتاح يوم .

أبى يحلم ، يحلم دائمًا ولا يستريح ..

- يا أخويا نام بكرة لما تشبع .

أمى تشجعه وهى تدرك أنه لن يفعل .. يتنهد أبى ، ينظر نحوى فيجدنى منتبهًا ، أبحلق منتظرًا الدعوة اليومية ، يشيح بوجهه عنى ، أعتدل باحثًا عن ضالتى ، الكيس الثمين .

أُصدم ، انكمش غاضبًا ، يمسح شعر رأسى معتذرًا ، أبعد يده معاتبًا ، فيعدنى بالغد .

أحاول معاودة النوم ، معدتى تعاركنى ، أتقلب نافخًا ، تقوم أمى تُكركب باحثة عن شئ يؤكل ، تخفق ..

- يا عينى يا ضنايا ..

أبى يفسر لها المسائل :

- الرقابة كانت الليلة صارمة ، الكابتن أشرفَ بنفسه على الصالة .. لأهمية العريس ، والمتر يخاف ، فلم يسمح لنا باقتسام الفضلات ، تصورى يا أم أحمد .. طعام بالكوم .. بينها وجبات سليمة وخروف مشوى ناقص قطع صغيرة .. كله ذهب للزبالة ، السفرجية تحسروا، أشاروا إلىّ ، شاغلوا

المتر ، تشجعت ، انحرفت بالخروف ناحية غرف خلع الملابس ،المتر رآنى ، أعادني للمغسلة شاتمًا ، هددني بالطرد لو كررتها ، خسارة .. خروف يا ناس .. حظوظ ، خنازير المزابل أسعد منا .. لكن الشهادة .. المتر يتساهل معنا معظم الأيام وبالذات عندما يظفر ببقشيش كبير ، يوزع علينا ربعه ويستولى على الباقى ثم يمن علينا بالفضلات نسربها لدواليبنا ، نأكلها أو نأخذها لبيوتنا ، لكن الذى يقع فى يد الأمن مصيره الفصل .

- بلاش يا أبو أحمد .. مش لازم .

ينقطع صوت أبى ، يعلو شخيره ، تنام أمى بجواره ، أندسّ بينهما ، تغتاظ ، تحاول زحزحتى ، أتشبث بموقعى لأمنع تلاحمهما المقلق لراحتى .

فى اليوم التالى يفى بوعده ، يخاطر ، يعود إلينا فرحًا بكيس ينوء بحمله ، نصحو سعداء ، نتحلق الكيس ويبدأ السباق المحموم ، خليط عجيب من لحوم وأسماك وحلويات وفواكه ، معجونة كلها فى بعضها ، لا تستخلص صنفًا من آخر ، تتداخل الطعوم بين حريف ومالح وحلو . لكن أخى الأكبر - كعادته - ينغص علينا برفضه مشاركتنا الوليمة ، يرمقنا ممتعضًا كأننا نجتمع حول جيفة .. أمى ترجوه ، تغريه بقطع منتقاه ، بحلوى نادرة ..

- والنبى تدوق دى ..

يشيح بيده شاكرًا ، لكن شفتيه تشيان بالقرف .

- يا فقرى خد اسند طولك .

- قلت مش عاوز .

يتدخل أبى آمرًا :

- انزل يا وله .

- شبعان يا بابا .

- أحسن لك .

- يا بابا والله شبعان .

- حتنزل واللا أقوم أكسرك .

- يووه بقى .. قلت شبعان . مش نازل .

يتحرك ابى منتفضاً لتاديب المتمرد ، أمى تعترضه :

- عنه ما طفح .. ريّح نفسك أنت ونام .

لأ نهتم بالمعركة الدائرة ، نتسابق ، أمى تنضم إلينا لتقوم بدورها الإشرافى :

- على مهلك يا مفجوع .

لا اسمع .. لا أتريث . سباق سباق .. لكنه ممتع .

- يا بنت حاسبى لاتزورى .

البنت تدفع بالمزيد لفمها الممتلئ .. غير عابئة بالنصيحة ، تمسك أمى يدها ، تضربها برفق ، تطمئنها بوفرة الطعام وأن الساعة لن تقوم . تتوقف الأيدى تدريجيًا ، وتنطلق كلمة الحمد مع أننا لم نبتدئ بالبسملة ، فلا يبقى فى الساحة سواى ، اتسلّى ، أسأل أبى عن أسماء الأصناف التى جدت ، تنهرنى أمى لكى أدعه يستريح ..

- اطفح وأنت ساكت ..

أبى يحبنى لأنى أسمع كلامه ودخلت معهد القاهرة الدينى كرغبته ، ويخشى إغضابى حتى لا أضايقه فى الفراش ، لو رضيت عنه تركت لهما السرير وانضممت للبنتين على الأرض . يتحسب فيجيبنى مسميًا كل قطعة أشير إليها :

- اسكلوب بانيه ، مارون جلاسيه .

أقاطعه :

- نفسى فى لحم الرومى يا بابا .

- حاضر .

- ماتنساش .

- قلنا حاضر . .

ثم يقول مشيراً للعلبة البلاستيك التى لحسنا محتوياتها بالسنتنا من حلاوتها . وهذه اسمها «أم على» . فاتحسر لأن أم احمد لا تجيد طهى سوى نوع يسمونه الطبيخ ، نصف كيلو كندوز كالبلاستيك تسبح داخل حلة خضار نستمر نأكل منه ثلاثة أيام . . فنتمنى لو يحمض أو يندلق . فلماذا والحال كذلك يعادى أخى طعام الفندق ؟ سألته توضيحاً . . غاضباً أجابنى :

- اسمع يا شيخ فتة . . أنت مهموم ببطنك ولا تعى هذه الأمور ، إننى مستعد لآكل لحم الكلاب والحنضل والنجيل . . لكنى أموت جوعاً ولن آكل فضلات الغير . . هل فهمت يا سيدنا الشيخ ؟ . .

انظر إليه مستغرباً طالباً الإيضاح . . فيضيف ثائراً :

- لماذا يطعمنا أبى الفضلات .

- هه قل لماذا؟

- هل نحن متسولون ؟ إذا كان عاجزاً عن إطعامنا . . فعليه أن يقتلنا وينتحر .

يا رب . . ما هذا ؟ أهو مجنون أم ابن حرام ؟ لماذا يتحامل على أبى بهذه القسوة ؟ . إنه يضيق بكل شىءويصف حجرتنا بالزريبة ، لأننا نأكل، ننام ، نستحم ، نطبخ ، بداخلها ، ويشمئز من دورة المياه المشتركة فيقضى حاجته فى المسجد مع أنه لا يصلى ، دائم الشجار مع أطفال الجيران الذين يبصقون ويتمخطون فى الحوض الوحيد الذى نغسل فيه أوعيتنا . أقول له

بأننا أفضل ممن ينامون فى الشوارع والمقابر ، وممن يستحمون فى مياه الترع ، وممن .. يقاطعنى زاعمًا أننى مجرد ببغاء ومردد لكلام الآخرين ، متواكل ولا رأى لى .

حتى أمى تعرضت لوقاحته ، قابلنى عند العلاف أنتقى حبات الطمى الصغيرة من جوال الفول لأن أمى (تقرقشه) فى ظروف خاصة ولأسباب أجهلها .. فسألنى حائرًا :

– هى أمك بتتوحم ؟

– إزاى يعنى !

– زى كل النسوان ..

ثم أفهمنى ما أجهل :

– فالنساء فى بداية حملهن ، يتوحمن على أشياء معينة ، أطعمة غالية ونادرة ومشّ وفسيخ وبالبلا الأزرق ، وأمك من الصنف الأخير ، .. هل سمعت بمن يأكل الطمى .. يعنى الطين ، أمك تفعل هذا ثم تلد أطفالاً (مخهم زى الجزمة) .. انظر لحالنا .. أختك الكبرى تعثرت فى الثانوية وقعدت ، الصغرى مرضتُ ولن تجتاز الإعدادية ، وانت تبدو لى كالمتخلف عقليًا .. فلابد أنها مضغت فدان طين قبل أن تلدك .

أبتسم حائرًا فى أمر هذا المتمرد الساخط وأدعو الله أن يهديه ، عند رجوعنا للبيت ، وجدنا أمنا راقدة تعانى شدة الارتجاع ، سألها بصوت مختنق :

– مالك يا ماما ؟

– مافيش شوية دوخة بس .

– تانى عيال يا ماما ؟

– حكمته يا بنى .

- حكمة مين ؟

- وأنت مالك أنت !

- مالى إزاى ؟ هياكل إيه ؟ تراب ؟

- كل واحد برزقه .

- رزق إيه ؟ ومنين ؟

- بقول لك إيه غور فى داهية يلعن ميتين أبوك

وصار يضايقها ، ينكد عليها حتى زهقت من نفسها والدنيا ، سكبت على ملابسها الجاز ، وكادت تفعلها لولا نجدة الجيران ، فدعت عليه وطلبت من ربنا أن يقصف الترام عمره ، ولما تأخر فى هذا اليوم ، نزلت تبحث عنه باكية وأعادته بعد توسل ، وكفّا عن الشجار وتصالحا وعرفت السبب فيما بعد ، أمى رضخت له فذهبت إلى طبيب ، وأفرغت أحشاءها من خلف ظهر أبى .. وكادت تموت ، فكرهت أخى المتسلط لأن كلامه صار ثقيلاً وسخطه شمل الجيران وسكان الحارة وعموم الناس ، يصفهم بالمواشى .. فهل يقصدنا أيضًا ؟ هل أنا خروف ؟ سألته فأجاب متحديًا :

- أنت كذلك حتى الآن وسأجربك عمليًا لأرى مدى اختلافك فهل لديك استعداد ؟

قلت :

- نعم ماذا عندك ؟

أعطانى رزمة أوراق لأقوم بتوزيعها فى الحوارى، أمام الورش ، أو حيث يجتمع الناس ، مرتديًا زيى الأزهرى للتمويه ، ونصحنى بالحرص والهرب لحظة الخطر ، فى الطريق داهمنى الخوف ، سحبت ورقة ، قرأتها مرتين ، كلام كله ألغاز ، فلابد أننى غبى فعلاً أو أخى معتوه ، فهل أتراجع ؟ تشجعت ووقفت أمام المسجد لحظة خروج المصلين ، التقط شيخ ملتح ورقة

.. يقـرأ وينظر إلىّ ، يقـرأ ويرتعش ، ثم انقض علىّ ، أمـسكنى بقـوة ، صارخًا :

- يا كفرة .. يا أعداء الله والوطن .. وأخذ ينادى .. يا شاويش .. يا عسكرى .

خفت . ارتعبت ، نشبت أسنانى فى يده .. جريت ، أمسكت ذيل جبتى وجريت . تخلصت منه بأعجوبة عدت لأخى أرتجف شد على يدى مهنئًا لأننى خرجت من القطيع ، نضجت مبكرا ودخلت التاريخ كاصغر مناضل

هل ورطنى فى أمر ممنوع ؟ ولماذا طاردنى الشيخ ونعتنا بالكفرة مع أننى مسلم وأزهرى ؟ نمتُ أُفكر فهاجمنى كابوس مرعب ؟ جاءنى الشيخ فى المنام ولف لحيته الطويلة حول رقبتى ، أختنق الحقنى يا بابا ، الحقينى يا ماما . قمت فزعًا وأفزعت أمى . سقتنى ماء قرأت آية فى أذنى مسحت عرقى .احتوتنى . شعرت بى أرتجف

- مالك يا ضنايا ؟

- هيودونى السجن ياماما

- ليه ؟ عملت إيه ؟

- أحمد

- ماله أحمد ؟

- هو السبب

أفشيت السر . رويت لها ، حكت لأبى ثار ، سحب أخى النائم ، أشبعه ركلاً ولكماً بصقًا وسباً . زحف المضروب وقد ظن الضارب جُن دخل تحت السرير مرددًا بفزع :

- (مالك يا بابا فيه إيه ؟)

- عاوز تودى أخوك فى داهية يا صايع !

- داهية ؟ داهية إيه ؟ هو فى إيه ؟

- ناقصك أنا يا ابن الجزمة ؟ فين الأوراق ؟ ورينى ؟

بعثر كتبه وملابسه وفراشه ، فشل فى العثور على الأوراق .. جذبه عنوة، برك فوقه ، خنقه حالفًا أن (يطلع روح أبوه) مالم يعترف بالحقيقة.. فما هى ؟ وهل يعترف بها ؟ أنا أيضًا أود معرفة المهمة الخطيرة التى قمت بها ودخلت بسببها التاريخ كأصغر مناضل ؟ .

قال أخى ببطء وتأن :

- الموضوع يا بابا ببساطة أننى أقوم بالدعاية لبناء مسجد جديد ، وابنك بالغ والشيخ الذى تعرض له (مخه ضارب) وفهم الأمر خطأ ..

أبى يركز عينيه الحادتين محاولاً اختراقه ، أخى يغض بصره خائفًا فيثور عليه من جديد :

- هل تحاول خداعى ؟ مالك أنت وبناء المساجد ؟ . وهل صليت يومًا أو حفظت القرآن ؟ الأننى أمىّ تظننى أحمق ؟ . قل . ما الموضوع ..؟ وهجم عليه فاحتمى بأمى التى بكت لأنها تسببت فى هذا كله.

ونام أبى حزينًا . طلب أسبرينة .. ربط رأسه بمنديل ولم يذهب للعمل فى هذا اليوم العاصف . وأخى خاصمنى ، ظل يترصدنى حتى واتته فرصة الانفراد بى . ضربنى وسبنى :

- أيها الواشى الحقير .. لن تصير رجلاً وسيلعنك التاريخ كأصغر خائن.

صار أخى بعد ذلك تحت مراقبة أبى ، يسأل عنه فى المدرسة . يحدد له المواعيد . يتتبعه ، يرغمه على ملازمة البيت ، وجندنا جميعًا لجهازه المباحثى. ومرة وجد كتابًا ضخمًا بين كتبه لا يماثل الكتب الدراسية ؟ احتار

فى أمره فسألنى ، فقلت له :

- إنها رواية .

- رواية يعنى إيه ؟

- رواية يا بابا .. حاجة كده للتسلية ..

- واسمها إيه بقى . "حب من نار" ؟

- "البؤساء" يا بابا ..

- بؤساء ؟!

ضرب كفًا بالأخرى وسبه .. الولد المجنون هذا ، حتى هوايته تغم النفس وهل ينقصنا البؤس حتى نقرأ عنه فى الكتب ونتسلى به ؟ ألم يجد كتابًا أفضل من هذا النكد ؟ ماله القرآن ، ربنا يهديك يا ابنى .

واستمرت علاقتنا متوترة بأخى ، وأعتقد بأنه مخطئ فى حق أبى الذى يكد لإطعامنا .. صحيح نحن بالكاد نعيش وليس لدينا شىء ، حتى البوتاجاز المسطح باعت أمى أنبوبته وعادت لوابور الجاز ، ولم يبق غير مذياع أثرى نتعارك عليه ، وأخى يقول إننا نعيش عند حافة الخطر ، لأن أبى الذى عانى البطالة المتقطعة زمنًا ، استقر به الحال منذ تسع سنوات فى صالة الحفلات بالفندق .. ومازال يعمل بنظام اليومية ويمكن الاستغناء عنه لأتفه سبب ، وفرصته الوحيدة لينجو بنا هى السفر . وأمى تعترض على فكرة سفره لأنها لن تقدر على همنا ومشاكلنا وتطالب أخى بمساعدتنا بعد حصوله على الثانوية ، بالتطوع فى الجيش أو معهد أمناء الشرطة ..

- نعم يا ست ماما !

- آه .. تساعد أبوك الشقيان .

- وأبقى عسكرى ؟

- وماله ؟ ميرى ومركز .

– بابا قال لك كده ؟

– ولازم يقول .. دول اخواتك يا حبيبى .

– أفكر .

وتصاعدت أزمتنا بسبب تكاليف علاج أختى ، بدأنا نختنق ، وفكرت أن بوسعى مساعدتهم بوسيلة ما .. كنا فى أواخر شهر رمضان الليلة التى يقولون إنها خير من ألف شهر وتنفتح فيها طاقة السماء للمحظوظين .. صليت .. لبست جلبابى الأبيض وجلست أرنو للسماء مترقباً تلك اللحظة المباركة .. لأطلب من ربى كل ما يفرج كربتنا ، وقام أخى ليتبول فوجدنى أتلو القرآن وأبص عبر نافذة مفتوحة على منور ليس به ما يسر ، كراكيب ، وأقفاص ، وحزم ثوم معلقة على مسامير ، وسألنى مندهشاً عن الحكاية .. ألحّ ، فأخبرته بعد تردد ..

– طاقة ؟طاقة إيه يا شيخ فتة ؟

–دا كلام ربنا .. حرام عليك .

ولما وجدنى مصراً على موقفى ، سألنى جاداً :

– طيب لنفرض أن المسألة ممكنة فماذا ستطلب ؟

قلت بحماس :

– المال الوفير لأبى ، الشفاء لأختى ، النجاح بتفوق ، وشقة لنا جميعاً فى المساكن الشعبية ، عريس غنى لأختى الكبرى ، الحج لأمى .

لأول مرة منذ شهور يُقبلنى بود ، ربت على ظهرى ، وقال بصوت حزين :

– أنت طيب رغم وشايتك الحقيرة ، لكنك ورثت غباء أبيك ودروشة أمك .. وينبغى تبصيرك بحقائق غائبة عنك ، فالسماء لا تمطر أموالاً مهما دعوت ، فلابد من أسباب ، ومساكن الحكومة تحتاج لسعى دءوب ولا تمنح

لأمثالنا إلا بعد انهيار البيت فوقهم ، وأختك الصغرى للأسف مرضها خبيث ، والكبرى لو جاءها عريس ثرى .. سيكون كهلاً أو مريضًا من خارج حدود الوطن ، أما النجاح .. فهو ممكن . لكن الذين يتفوقون غالبًا من طلبة مدارس اللغات والخاصة ، والذين يتلقون دروسًا مكثفة ، أو ممن تسرب إليهم الأسئلة .. هل فهمت الآن ؟ دائمًا الأسباب يا شيخ فتة ، قم نم وشكرًا على مشاعرك الطيبة ..

دارت رأسى ، تهت لحظة . ناوشنى إبليس . اهتزت الثوابت استعذت بالله من الشيطان فانزاحت الغشاوة .. السماء هناك وستفتح طاقتها لى رغم أنف أخى ، فمازلت قرب النافذة أتطلع بتركيز وانتباه حتى حانت لحظة توهمت فيها ومضًا شق صفحة السماء ، فأسرعت أطلب وأطلب ، يا رب يكسب أبى شهادة استثمار ، ثلاثين ألف جنيه يارب .. ليّن قلب المحافظ ليأمر لنا بشقة فوراً ، يارب .. أقصف عمر الكابتن الذى يرمى نعمتك فى الزبالة ، .. يارب .. يارب .. ، وتنبهت أمى لابتهالاتى فشاركتنى الدعاء حتى تعبنا ..

داهمنى القلق حين تذكرت كلام أخى عن الأسباب ، فسألت أمى مهمومًا :

– يا أمى .. هل يملك أبى شهادة استثمار ذات جوائز ؟

تعجبت من سؤالى ونفت بهز رأسها .. فحزنت ..

– يا أمى . هل تقدم أبى بطلب للحصول على شقة أو سعى لذلك من قبل ؟

قالت :

– لا ..

فوجمت .

- يا أمى .. أليس فى عائلتنا كبير يتوسط لنا ونلجأ إليه عند الحاجة ؟
قالت :
- كلهم على قد الحال .. فصدمت .
- يا أمى .. لو تفوق أخى .. هل بوسعنا الإنفاق عليه فى كلية الطب ليصير طبيباً ويعالج أختى ؟
تنهدت ولزمت الصمت .. ففهمت .
- يا أمى .. هل مرض أختى خطير ؟
قالت :
- ربنا الشافى ، ومعهد السرطان رفض قبولها لعدم وجود أماكن والعلاج الخارجى غال ومكلف .. ثم بكت فبكيت معها .
قلت لها مواسياً :
- لا تحملى هماً .. لقد لجأنا إليه فى هذه الليلة الكريمة وسينظر فى أمرنا حتماً . ألسنا عبيده ورحمته واسعة ؟
قالت :
- نعم .. وربنا يقوى إيمانك .
دعانا الداعى للسحور ، تسحرنا ونمنا وأصبحنا وافتقدنا أبى .. صبرنا ساعة . قلقت أمى فقلقنا معها ، وأضربنا عن مدارسنا .. خرج أخى يسأل عنه فلحق به . مرت الدقائق كالساعات توترنا .
- يا خرابى .. أنا مستنية إيه ؟
حملت ملاءتها وخرجت تجرى . فتبعتها . وقفنا أمام الباب الخلفى للفندق نسأل ، نظر موظف الأمن لملابس أمى وقال لها :
- اذهبى يا ست .. واجلسى مع الجالسات فى الرصيف المقابل حتى يصحو الحاج رمضان ويوزع عليكن زكاة عيد الفطر بنفسه ، أعلمناه

بوجودكن وأرجوكن عدم التزاحم ، لأنكن أمام فندق سياحى .

– الحاج رضوان مين ؟

– أمال أنت جاية ليه ؟

أفهمته أننا نسأل عن فلان زميلكم الذى يعمل فى صالة ألف ليلة .. نظر إلينا بإشفاق وصمت ، هزته أمى بانفعال ..

– هو فى إيه ؟ جرى له إيه ؟

– ربنا معاه .

– مع مين ؟ بتتكلم عن مين ؟

طمأننا وقال بلهجة مخففة .. حظ زوجك السئ أوقعه مع مدير أمن الفندق شخصيًا فضبطه متلبسًا بتسريب نصف ديك رومى ، وكان من الممكن حصر الموضوع فى نطاق الفندق ، لكن المشكلة الآن أنه شتم مدير الأمن ، فحوله للقسم وأوصى عليه المأمور .. وجدنا أخى أمام القسم منهاراً، لأنه سمع خبراً عن تعرض أبى للضرب .. فسب العساكر والحكومة.. وسبنى :

–كله بسببك .. عاوز تاكل رومى . مالها الطعمية .. كُل بقى .. بكره تسفوا التراب .

تقرَبت أمى لشرطى ورشته ليدخل ويتقصى لنا الأخبار ، عاد وأخبرنا بأنه محجوز فى غرفة المباحث ، ومازالوا يضربونه لكى يعترف بالشركاء .. وتساءل هامسًا :

– هو من بتوع الإسلام ؟

– ابتسم أخى من بلاهة العسكرى .

ورد عليه ساخراً :

– لا .. من بتوع الرومى !

بعد أربعة أيام عاد أبى منكسراً ، حزينًا ، مورمًا ، مسلخًا . ورقد عدة أيام يئن ، يتوجع ويهلوس ، وأخى كان ثائرًا من تصرفه وحملنا المسئولية لأننا شجعناه على اختلاس طعام الفندق ، وساخطًا على الدنيا كلها ، ويتوعد أناسًا نجهلهم بيوم الحساب الآتى ، وصار عصبيًا يعارك حتى الذباب.

وقالت أمى لأبى الذى فقد وظيفته معاتبة :

– يعنى كان لازم تشتم الراجل ؟

– وأنا أقدر ؟

– أمال إيه ؟

– قلت له ماكلكم بتنهبوا ومن المطبخ كمان ، يعنى جات لحد عندى ووقفت .. داحنا يدوب بنلم البواقى ..

وقال لها أيضًا : أنه كان يتمنى أن يحكموا عليه بالأشغال الشاقة ولا يفرجوا عنه بهذه الطريقة المهينة ، لأن مدير الأمن كان يجلس عند البك وكيل النيابة منتفخًا ومزهواً وقال لى شاتمًا :

– علشان تكلم أسيادك كويس يا ابن الكلب .

كل فنادق المدينة سدت أبوابها فى وجه أبى بحجة شهادة الخبرة السابقة واتضح له أن مدير الأمن مازال يطارده .. ففكر فى السفر لأن حالتنا تدهورت ، تمحور طعامنا فى مشتقات الفول ، أشياؤنا البسيطة تسربت لباعة الروبابيكيا ، أختى ساءت صحتها . وتحولت أيامنا لكابوس ثقيل ، تأزمنا لدرجة أن خبر نجاح أخى الإعجازى . مر بنا دون فرحة .

وأخيراً تلقى أبى وعداً بالسفر الفورى . لكن الوسيط طلب ألف جنيه . نظير تذكرة الطائرة والإجراءات ، فغامرت أمى وسافرت إلى أهلها وقاتلت إخوتها على قيراطها الموروث ، وانتزعت حقها بالقطيعة ، وعادت ببعض

المطلوب ، فلجأ أبى للمرابين والأنذال ، ووقع على شيكات لاستكمال المبلغ، ثم سافر مشمولاً بدعواتنا ، محملاً بأحلامنا ، لكنه عاد على نفس الطائرة لأن التأشيرة طلعت مزوّرة . صرخت أمى صرخة ممطوطة ، وكادت تشل ، وضرب أخى الهواء بقبضته مهدداً :

– الأوباش .. لازم نربيهم ..

انسحب أبى مضربًا عن الحياة ، نناديه فلا يجيب ، نهزه فلا يستجيب ، فحملت أمى عبء إعاشتنا ، تجوب بيوت القادرين لغسل ملابسهم ، أما أخى فقد أصبح حاداً ، وعنيفًا ، انفلت زمامه ولاندرى ماذا يفعل ؟ فخفت عليه أكثر من خوفى على أبى ، لأننى رأيته مرة يدس أوراقًا بحرص داخل قطن المرتبة . فقلت لأمى المثقلة دون توضيح :

– أخويا يا ماما ؟

– ماله أخوك ؟

ثم تركتنى وانشغلت فظل سؤالى معلقًا .. وخرج أخى ذات يوم ولم يعد . انتظرناه ولا خبر . الصدمة هزت أبى ونبهته فخرج معنا يبحث . طرقنا أبواب الذين يحتجزون الغاضبين ، جبنا مناطق المشردين الخارجين وترقبناه عند سد القناطر ، تأملنا الأجساد المثلجة فى الأماكن التى تحتفظ بالمنسحبين المجهولين ، فيئسنا ولم يبق لنا سوى الانتظار ، فوسوس لى الشيطان بأنه ربما نجا بجلده من السفينة الغارقة ..

بعد شهر طويل ، تآكل فيه عقل أبى ، وشاب شعر رأس أمى ، داهم بعض الرجال الجهمين غرفتنا ليلاً وعرفونا أنهم من مباحث أمن الدولة ، فظن أبى أنهم جاءوا بسبب الشيكات فخاف وانكمش . بعثروا كراكيبنا وفراشنا متأففين وعثروا على الأوراق المخبأة ، فتشوا أيضًا غرف الجيران وعششن الفراخ وصناديق القمامة وجيوبنا وخدشوا حياء الحريم .. تساءل

أبى مرعوبًا :

- هو فى إيه ؟

رد كبيرهم بإيجاز :

- أحمد .

قفز أبى فرحًا :

- هو فين ؟

قالت أمى باكية :

- يا حبيبى يا ضنايا .

وهم ينصرفون بأوراق أخى وكتبه رواية البؤساء تعلقت أمى بهم قبلت يد صغيرهم وقدم كبيرهم لكى يعيدوه لنا أو يسمحوا لنا بزيارته ، فتلقت منهم وعداً بأنها مجرد أيام ويعود إلينا لأن المسألة بسيطة .

لكن الأيام مرت ، أعقبتها الشهور ولم يعد ، ولا عرفنا له مكانًا حتى أبى ذهب بعيداً .. بعيداً . ولم يعد رغم أنه يجلس على بعد خطوات منى ..

خروج بلا عودة

انطلق بسيارته الأجرة عبر كوبرى رمسيس ، متمنيًا الوصول إلى بيته قبل الموعد التقريبى المتفق عليه لكى يحتفل مع أسرته بعيد الميلاد الثالث لثانى الولدين . منذ الصباح والولدان يزينان الشقة بيديهما ، وطالباه بإحضار البسبوسة والتفاح معه ، وأعدّت زوجته التورتة وقالت فى استحياء: (نفسى فى الكباب) . فحقق أمانيهم ، ويأمل الآن أن يسعفه الطريق قبل أن يفقد الكباب سخونته .

من خلال ضوء مُحذر ، لسيارة بالطريق المعاكس ، أدرك وجود كمين مرورى مبكر ،هدأ سرعته ، ضبطها ، عاد للجانب الأيمن لكى يلبى طلب من يشاور ، مطمئنًا لموقفه ، فرخصته سارية ، الأرقام ظاهرة ، الفوانيس سليمة ، والسيارة نفسها تلمع . وقف ينتظر دوره خلف صف طويل من سيارات الأجرة. باقى السيارات يسمحون بمرورها ، فلابد أن هذا الكمين له علاقة ما بسيارات الأجرة .

لما جاء دوره ، التف حوله معظم أفراد الكمين ، حاصروا سيارته ، دققوا فى أرقامها ، قدم لهم الرخصتين ، واثقًا ، تجاهلوا يده الممدودة ، تجاهلوه :

– كله تمام يا باشوات .

رمقوه بعدائية تهامسوا ، تداولوا . تقدم نحوه رئيس المجموعة ، ركب بجواره ، تبعه جندى مسلح برشاش ، ومخبر وأمين شرطة، احتلوا المقعد الخلفى . .

– اطلع .

– ما الذى يجرى ؟ ماذا حدث ؟ احتلال بقوة السلاح !

- إلى أين يا باشا .. ؟

- نزهة بسيطة لشم الهواء .

- نزهة ؟

مندهشًا تساءل أراد أن يشرح لهم ظروفه .. أسرته تنتظره ، الولدان سيناما غاضبين لو تأخر ، والكباب سيبرد . نظر إليه الضابط بضيق حين وجده مازال واقفًا ومترددًا ، زغده بقسوة :

- اتحرك يا بنى آدم .

- تحت أمرك يا باشا .

ضاعت السهرة . عيد ميلاد سعيد يا صغيرى . صار الآن مجندًا بسيارته فى خدمة الشرطة وبالمجان ، يستعينون أحيانًا بالأجرة للقيام بمهام سرية للتمويه ، وليس بوسعه الاعتراض . ليلة وتمر . سيهاتف زوجه بالظروف الطارئة ، استأذن الضابط فى دقائق لإتمام المكالمة ، تلقى ردًا جافًا ، بالتأكيد وقتهم من ذهب ، والمهمة عاجلة ، كان يحلم بسهرة عائلية . شتان بين السهرتين . أراد تلطيف الجو الكئيب ، حاول مد الجسور لكسر حاجز الرهبة ، فتح لهم لفة البسبوسة حالفًا بإصرار . هز الضابط رأسه رافضًا تبعه ركاب المقعد الخلفى ، اكتأب ، لا يجيد مسائل العلاقات . هل ينتقى لهم أكبر التفاحات أم يضحى بالكباب ؟ مشكلته أنه لا يدخن . مرت به سحابة حزن حين تذكر أسرته ، سيجد وسيلة لإتمام المكالمة ، تقرّب للضابط رغم عجرفته :

- تحب جنابك سماع شريط معين ؟

- بطل كلام .

أى مخلوق نكد هذا ؟ يحتل سيارته ، ويعامله بجفاء . هل يظنه عسكريًا مجندًا تحت قيادته ؟ دمه ثقيل . خسارة فيه التفاح . ماذا لو

طالبهم بالحساب بعد نهاية المأمورية ؟ هذا حقه . طالما يرفض التواضع . سمعه يتحدث باهتمام وجدية فى جهاز الإرسال :

- مساء الخير يا محسن باشا ، السيارة المعنية تم ضبطها ونحن فى الطريق إليك .. تأمرنى يا باشا ..

- أين هى السيارة المعنية .

تساءل مرعوباً :

- ما الحكاية يا باشا ؟

- ستعرف .

- خيراً إن شاء الله .

- أنت وحظك .

هو المقصود إذن ؟ بسرعة راجع تصرفاته منذ غادر بيته إلى لحظته الراهنة؟ شريط كامل ، وجوه ، ركاب . عساكر . نداءات .

إشارات حمراء وصفراء . كل الذين أشاروا توقف لهم . عداده سليم. لم يصدم مواطناً أو احتك بسيارة . ليس عضواً فى حزب معارض أو جماعة متطرفة . ما الحكاية يا ترى ؟ هل أشار له رجل مهم وتجاوزه دون قصد ؟ زميل حدث معه هذا . فأهلكوه ، سحبوا رخصته . أوقفوه ثلاثة شهور ، ضايقوه ، فباع السيارة وهاجر .. احتمال ثان مفزع ومخيف ، أن يكون أحد الركاب ، قد نسى حقيبة يد ثمينة فى المقعد الخلفى والتقطها راكب آخر من خلف ظهره ، زميل أمين واجه ظروفاً كهذه ومازال محبوساً للشهر الرابع .

أخذ يخمن ، يرجح ، يؤول ، يفكر فى كافة الاحتمالات ، لا احتال على سائح ، ولا تطرق للسياسة مع الركاب أو سب مسئولاً ، لا شىء على الإطلاق . لا أخطاء أو مخالفات ..

- هنا ..

وقفوا بجوار مبنى أمنى مهيب . عساكر مسلحون وحواجز ومحاذير . سار يتقدمه الضابط ويحيط به الجنود . ولجوا مكتبًا يحرسه مسلحان ومخبر فيل :

- تمام يا باشا ..

- هل تأكدتم من أرقام السيارة ؟

- مضبوط يا باشا .

- بلغ رجال الكمين شكرى . وتصرف لهم مكافأة ..

الاسم مدون على المكتب لواء محسن النشرتى . رئيس هذا الجهاز ، لا يعرضون عليه سوى أهم الحالات ، عشر تليفونات متجاورة . تفرغ له بعد عدة مكالمات . اعتدل فى كرسيه ، وتساءل زاعقًا :

- أهذه أرقام سيارتك يا شاطر ؟ .

- نعم يا باشا .

- وخط سيرك اليوم .

- القاهرة وضواحيها يا باشا .

- وقعتك سوداء .

- ولماذا يا سعادة الباشا ؟

- لأنك سافل ، ابن كلب .

ارتعشت عضلات وجهه ، تعاركت مصارينه ، تململ فى وقفته ابتلع ريقه بصعوبة ، كاد لسانه ينفلت بالرد لولا بقايا صبر .. لولا تذكره للولدين وأمهما . هل قال له الله يسامحك .. ربما ..

- هل تعرف من هى السيدة التى شتمتها اليوم ؟

- أية سيدة يا سعادة الباشا ؟

- إنها أمى يا قواد .

- لم تركب معى سيدات يا باشا .

- وهل تعرف من تكون ؟ إنها أم ثلاثة يملكون مصير هذا البلد ، وبنت أعظمْ رجال مصر .. ألم تسمع عن ابيها يا جحش ؟

- ربنا يطول عمرها يا باشا .

- لكن عمرك لن يطول .

- الأمر لله يا باشا .

- ولى .

- أعرف يا باشا .

- سأقطع لسانك حالاً .

- أقسم بالله وبأنبيائه وكتبه إننى برئُ ..

- سنرى ..

رفع محسن باشا السماعة ، وسأل أمه عن أوصاف الجرذ الذى أهانها :

- ألو .. أمسكناه يا ست الستات ، قلت لك إننى قادر .. حتى الجن لا يفلت من يدى . مازلت تبكين . اهدئى يا ماما . أقسم بتربة جدى أنه سيدفع ثمن دموعك الغالية ، فقط ساعدينى وصفيه لى ، لأنه ينكر ، طويل ، مائل للسمنة . تمام ، شعره مجعد . مضبوط بالنسبة لأرقام السيارة. أكنت تلبسين النظارة ؟ . هذا يكفى .. انتظرى هل تتذكرين ماركة السيارة ؟ . لا يهم .. ماذا ؟ لن تشهدى هذا شأنك . ماذا تقولين ؟ أسامحه ؟ لا يا ماما ، لا تحلفينى براس أبى . حاضر يا ماما ، لو اعترف واعتذر .. سأفكر ..

تحياتى

تساءل احد الضباط مستفسراً :

ـ هل نستأذن سعادتك ونعرف أصل الحكاية ؟

ـ سيارة الحاجة تعطلت ، فركبت مع هذا الحيوان .

ـ ما اسمك يا ولد .

ـ ورداني يا سعادة الباشا .

ـ زفت هذا طلب منها خمسة جنيهات من التحرير للعباسية .

ـ يا خبر .

ـ ولما راجعته وتمسكت بالعداد سبها .

ـ شتمها فعلاً ؟

ـ وبكلام فظيع ، دفعها بيده وقال لها : (غورى فى داهية يا ولية يا شرشوحة ، مش عاوز من وش أمك حاجة) .

ـ لأم سعادتك ؟

ـ حيوان فعلاً .

ـ نلبسه قضية .

ـ تابيدة على الأقل .

ـ بسيطة يا باشا . سنفتش جيوبه والسيارة وسنجد الدليل هذا شأننا .

ـ عدا تهمة مقاومة السلطات بمطواة قرن غزال .

كيف يثبت لهم براءته ، حلف ولم يصدقوه ، هل يجثو ويقبل قدمى الباشا ، فليأتوا بجميع سيارات الأجرة ذات الأرقام المتقاربة ويعرضوا سائقيها عليها . المؤكد هناك خطأ سيذهب ضحيته ، معظم سكان المدينة تتطابق أوصافهم معه ، عشرون مليونًا يمتازون ، بالطول والسمنة ، عشرة ملايين شعرهم مجعد ، ماركة السيارة ستخدم موقفه ، وعرضه بين آخرين أمر ضرورى . طالب بهذا .

ـ أمى لا تكذب .

– فى عرضك يا باشا .. عندى أولاد .

– اعترف أولاً .

– هذا ظلم .

– أنا ظالم ؟ طيب .. خذوه من امامى .

تسلمه عساكر أفيال .. أدخلوه غرفة استقبال العصاة ركلوه . تبادلوه.. سحقوه . تلاعبوا بالصدغين . أفرغوا شحناتهم المكبوتة فوق القدمين ، قال له رئيس الأفيال ناصحًا :

– يبدو أنك ابن ناس ، فلا تعد إلينا ، فلن أضمن سلامتك . جولتنا القادمة ، خلع الملابس والنوم كاللوطى ، انظر للحمار الذى بجوارك ، لا يتعفف ولا يتحشم . أرجوك لا تغضب الباشا فتغضبنا . إذا قال إن البحر المالح حلو ، فهو كذلك ، إذا أمرك بشيء . نفذه، فهو نافذ . نافذ .. وفى الأصل ، أن الداخل إلى هنا مفقود ما لم ير الباشا غير ذلك .

الوردانى يترنح ، يقئ ، تدور به الدنيا ، نسى زوجه والولدين ، صار غير من كان ، لا معنى لضبط النفس ولا لمئات الأمثال التى تحض على المهادنة ، كانت الإهانة فوق كل احتمال ، « قلها ومت » أين قرأ أو سمع هذا ؟ استعد للمواجهة ووضع رقبته ثمنًا لها .

– ماذا قلت يا وردانى .

– أمك أخطأت .

– أمى أنا ؟

– أقسمت لك ولم تصدقنى .

لا باشا ولا جنابك .. رد قاطع جاف . قفاه يؤلمه . لا يذكر أن يد أبيه امتدت عليه . خمسة وثلاثون عامًا وصفحته بيضاء لا سب أحد ولا سبه مخلوق .. لا ضَرب ولا ضُرب .

- يعنى أمى كذابة ؟

- واجهنى بها .

- تعنى أنها كذابة ؟

- انت أدرى بها .

- نعم يا شاطر ؟

- غير لها النظارة .

محسن باشا فقد السيطرة على نفسه واندفع من كرسيه كالعاصفة وهوى على وجه الوردانى بصفعة دوت وتجاوز صداها محيط المكتب والمبنى، وسبه :

- (اتكلم كويس يا ابن القحبة) .

الوردانى رد عليه فوراً ، دون تفكير وقال له بندية وجسارة :

- (أهه أنت ابن ستين قحبة) .

ثم رد الصفعة باقوى منها ، وقبل أن يكيل له صفعة ثانية ، ارتفع فى الهواء وانبطح أرضاً.

وهو تحت الأقدام ، تنهال عليه الأحذية الأميرية الضخمة ، الأيدى الغليظة ، كعوب البنادق ، أحزمة الوسط ، اغطية السناكى ، المقاعد ، وكل ما يمكن الضرب به ، كانت وجوه عزيزة وحبيبة ، تبين وتختفى ، والولد الصغير ينادى عليه بصوته الرفيع الموسيقى :

- تعال يا بابا .. ماتمشيش ، أنا وماما عاوزينك .

كان يتمنى تلبية النداء ، ويتمنى أكثر لو استطاع إبعاد اليد الغبية التى امسكت بلسانه وسحبته خارج الحلق ، تحاول اقتلاعه ..

وطني حبيبي

(١)

متوتراً يجلس ، بعجالة ، يتنقل كعادته الصباحية بين صفحات جرائد النكد ، يتقلص ، يرتفع ضغط الدم ، يغتاظ ، يحرك قدميه بعصبية ، يلعن، يتمنى العودة حالاً لمواقع القرار ، آه لو عاد ، لو ملك الزمام ، سيغلق هذه المواخير ، يشتت كتابها ، يؤدبهم ، السفلة ، أولاد الـ . .

وسيارته الفاخرة المتميزة ، تجرى به ، تسابق ، تفتح أمامها الإشارات ، جنرالاً شهيراً كان ، أهمهم كان ، حكم مدنا وبلاداً ، قطف التى أينعت وكتم التى تفوهت ، وجز كل نجيل البلاد ،ولما تطاول وامتدت يده للنخيل، قطعت ، والظل لا يناسبه ، يمرضه ، يحاول من جديد ، وظف ماله المخبوء وصار الآن أقوى مما كان ، لكن الصحف الملعونة ، تناوشه ، تعرقل طريقه ، تعاديه . . وهو كفيل بها ، يهاتف مساعده ، يوجهه :

– ياعلوان ، ضاعف إعلانات تلك الجريدة ، ضاعف الهدايا ، التبرعات، المطبوعات ، يا علوان، ابحث عن وسيلة لدفع ديون الجريدة الأخرى المتعثرة . يا علوان . . رئيس تحرير الجريدة إياها . لاعبه حتى نستقر على رأى بشأنه ، أما الولد الصحفى المسعور . . عليك به . ابن الـ . . ـه . أما الدبور الذى كاد يلسعه منذ أيام . سيتولى أمره بنفسه ، فمن أى عش انطلق يا ترى ؟ واليوم ، بعد لحظات ، سيبدأ عملية الاستكشاف ، آه ، لو عثر عليه بين رجاله ، الويل له ، الويل . . الويل . .

– أسرع .

– الإشارة يا باشا .

– اكسرها .

- الضابط !!

- زمر له .

أبداً لم تتوقف ، تعامل مثل سيارات المواكب والنجدة ، السائق أطلق نفيره المميز ، والضابط بكرًا مازال ، متحمسًا ، مازال يتحاشى الأيدى المروضة ، تجاهل النفير والسيارة وراكبها الذى كان ، ولما استمر النفير ، مزعجًا ، متحديًا ، فعلها .. نعم . فعلها التعيس ، تقدم بكبرياء ، طالب بالرخص وسحبها ، تنبه الباشا للكارثة ، ألقى بالصحف الملعونة ، فتح النافذة ، أطل غاضبًا شخط فى وجه التعيس :

- الا تعرف من اكون ؟

- طبعًا يا باشا .

- إذن .. هات الرخص .

- آسف يا باشا .

- نهارك أسود .

القيامة الآن ، على نفسه جنى هذا الجرذ ، يتحداه ، يده والهاتف ..

- يا علوان . اطلب الباشا فوراً على الرقم المباشر ، هذا الولد الغبى يغادر المدينة حالاً . أين .. قل له أسيوط .. نعم أسيوط لكى يقطعوا رقبته هناك ..

عدد آخر من التعساء أصيبوا حتى وصوله إلى مكتبه ، بصق عليهم ، ركلهم ، جازاهم ، علوان نفسه ، طالته زغدة ، الرعب يجتاح المؤسسة ، الرعب .. الرعب ..

- الرجل شائط يا جماعة .

- شائط !!

- على الآخر .

– ما الحكاية ؟
– يمكن مشاكل عائلية ؟
– أو موضوع التغيير الوزارى ؟
– وما شأننا ؟
– احذروه .

بسرعة سرى الخبر ، بسرعة تم بثه لفروع المؤسسة ، فى كافة أنحاء البلاد وبلاد العرب ، بسرعة تم تعديل الأوضاع ، والتقطه مراسل خبيث فطيّره لوكالات الأنباء كطرفة من طرائف عالم العجائب ، وشطحات الجنرالات ، فليس كل يوم (يشيط) رجل من هذا النمط ، تقع الانقلابات والحروب والقلاقل من لحظة كهذه ، الإدارة سكنت تمامًا ، مقاعد فوقها ألواح . . هس . . هس . . لا كلمة . . لا شهقة . . لا تنفس ، كلهم يتحاورون بالإشارات، كلهم يحلمون بالنجاة بأقل الخسائر .

ولم تهدأ ثورة الباشا إلا بعد وصول زائرة هامة كان يترقبها ، احتفى بها، وعدها بمال ووظيفة لو استدلت على الجبان ، وبالجحيم لو أخفقت أو تسترت عليه . وبوصولها ، تحول الموقف لكابوس وألغاز ، صدرت أوامر بمثول جميع العاملين أمامه ، كل على حدة ، دون استثناء بدءً من مساعده المخلص . . اللواء السابق علوان ، ومرورًا بنائبه الأول وهو شقيقه ، ونزولاً فى السلم الوظيفى حتى أصغر تعيس .

(٢)

لما حان دور الأستاذ زناتى ، مدير المشتريات والعقود ، دخل مترددًا ، متوجسًا ، لأن الذين سبقوه ، خرجوا مذهولين ، حائرين يخمنون ،

يؤولون، وكلهم دخلوا ، جلسوا أمام الزائرة لدقائق ، ثم شكراً . . الذى بعده يا علوان ، لاحوار غير كلمات الترحيب المعتادة ، لا أسئلة تتعلق بترقيات وشيكة كما تخيّلوا ، أو لوم على خطأ ، لم يبق سوى تأويلين ، محاولة الباشا التعرف لصوت من حادثه فجراً وسبه بكلام بذئ ، أو شكه فى دفاتر الحضور والانصراف ، والزناتى ، كغيره ، جلس أمام الزائرة ، حياها، رمقته ، من تحت إلى فوق بوقاحة ،دنت منه ظلت تدنو وكادت تلاصقه ، ثم قامت ، دارت حوله ، اخترقته ، عرته ، أربكته ، ثم بغتة ، أطلقت صرخة، ويدها الممدودة نحوه كادت تفقأ إحدى عينيه

– هذا يا سعادة الباشا !

الزناتى تفادى أصبعها الموجهة والباشا تساءل بدهشة

– الزناتى ؟!

– لم أتشرف باسمه . لكنه هو .

– هذا !

– والله العظيم هو .

الزناتى المرتبك ، المذهول ، يخرج صوته المحتبس بصعوبة :

– أنا ماذا يا آنسة ؟

– نعم أنت . . تذكرتك الآن جيداً شعرك صوتك سنتك المكسورة. . شاربك . . أنفك .

الزناتى يهب واقفًا ، يعترض الفتاة ، يمسك بها ، وبإشارة آمرة يعود لمقعده .

– اهدأ يا بابا .

– من هذه يا سيدى ؟

– موضوعك معى يا شاطر

– موضوعى .

– حالاً ستعرف ..

ما علاقة المواضيع بالفتاة ؟ ومن تكون ؟ فكر بسرعة ونسبها لفتيات الشرفات المواجهة للمبنى ، وجاءت تشكوه ، وقد التبس عليها الأمر مع شبيه عاكسها ، وربما كانت وكانت ، ثم هاجمه هاجس مخيف ، أن تكون المسألة كلها لعبة مرتبة بطريقة الباشا البهلوانية ، وأن الفتاة إحدى نزواته الليلية العابرة ويحاول إلصاقها بمرءوس . يا خبر يا زناتى .. أنت رجل مستقيم ، مؤمن ، زوج ، ويستحيل قيامك بمهمة كهذه لمجرد كون الباشا صاحب الفضل عليك وعلى أهلك ، لا .. لا .. هذا احتمال بعيد ، فلمثل هذه الأمور طرق وترتيبات أخرى ، وكثيرون غيرك جاهزون للدور ، ويقومون به يوميًا بشكل أو آخر ، وقد ورطك من قبل فى تعاملات مالية شائكة ، صفقات ، تعاقدات من الأبواب الخلفية ، ووقعت نيابة عنه على أوراق ضد القانون ، صرفت شيكات لا تدرى مصدرها ولا لمن ذهبت قيمتها ، قمت بمقاصات مشبوهة ، وما كان بوسعك ولا غيرك الرفض ، لكن القوادة المباشرة . من مهام غيرك . فاطمئن واهدأ .. حتى تنجلى الأمور .

– سعادتك حيرتنى يا باشا ؟

– ذكرنى أولاً .. من الذى وظفك هنا ؟

– جنابك .

– لماذا ؟

– من أجل خاطر المرحوم أبى .

– ومن أبوك ؟

– كان طباخ العائلة .

- كان طباخًا ومربيًا وأمينًا على أسرارنا ، أكلنا من يديه ، حملنا صغاراً، أكلتم طعامنا ، ألبسكم هدومنا ، يعنى عيش وملح وعِشرة .

- طبعًا يا باشا .

- عظيم .. ما معنى هذه الشكوى إذن ؟ .

- الشكوى ؟!

- خذ فسرها لى .

حدق زناتي .. أمامك أربع ورقات ليست غريبة عليك والآن بانت الرؤية ، يا بنت الأبالسة ، الفتاة كانت عاملة الآلة الكاتبة ، وقعتك قار ياتعيس . أتشكو الجنرال .. المؤسسة ، دقق جيداً إنها نفس الورقات التى وضعتها بيدك داخل مظروف مغلق وصدرتها رأسًا لرئيس البلاد ، رئيس البلاد يا زناتي لا رئيس هذه المؤسسة ، وهذا يقينا غير ذاك ، وإمعانًا منك فى الحرص ، لجأت لمكتب آلة كاتبة فى أقصى المدينة ، مزقت ورق الكربون، لم تخلف دليلاً وراءك ومع ذلك .. توصلوا إليك ، يا غبى لقد غاب عنك ماضى الرجل وخريجو دفعته الذين منهم الجنرال ، الوزير ، المحافظ، السفير ، النائب ، ونسيت عائلته عائلة الجنرالات فى الجو والبحر والبر والمزروعين فى كافة المواقع ، ونسيت ابن عمه المتربع فوق رأس أهم وأخطر الأجهزة الرقابية ، والذى بوسعه إحصاء عدد دقات قلبك وأنت فى غرفتك الحصينة ، وكشف عورتك وأنت بكامل ملابسك ، ونسيت الجنرال علوان الرهيب ، ونسيت الباشا نفسه والذى تغلغل واخترق كافة المجالس التشريعية والتنفيذية والسلطة الرابعة ومنظمة حقوق التعساء والكونجرس والأمم المتحدة والنقابات ، بحكم ما كان . وسيكون . كيف إذن غاب عنك هذا كله واندفعت ببلاهة إلى عرين الأسد بقدميك ؟!

(٣)

ماذا أنت فاعل الآن ؟ فكر ، إياك والاعتراف ، هذا الداهية سيستدرجك بنعومة ووعود ثم ينقض عليك ويفرمك ، إياك والاعتراف ، لقد بذل مجهودًا خرافيًا فى الوصول إليك ولن يرحمك ، وتاريخه الوظيفى السابق خير شاهد .. اسأل القبور عن عدد ضحاياه لو تنطق ، واسأل السجون ومستشفيات الأمراض العقلية ، يا تعيس .. مالك نسيت أقوال السلف عن الماء الذى لا يطلع العالى ، وعدم التدخل فيما لا يعنيك ، وحكمة السير بجوار الحائط ، لقد ألقيت بالتراث كله خلف ظهرك وبددت جهدك وطاقتك فى جمع الأدلة التى تؤكد شكوكك وتؤيدها ، المخازن السرية والأعمال السرية والزوار الغامضون ، والفاكسات التى تحرك الملايين عبر القارات ، فمنذ وظفك وميّزك وأنت قلق لأن كل الأوراق التى مرت عليك مقلقة ، وكان عليك البحث عن وسيلة للنجاة ، لا هدم المعبد عليك وعليه، والآن .. حاول لو استطعت ، فزوجتك الجميلة وابنتك الرائعة ، تنتظرانك .

- لماذا يا زناتى ؟
- يا باشا لست ..
- قدم لى سببًا ؟
- يا باشا ..
- هل قصرت معك ؟
- يا باشا والله ..
- قل .. كم تريد ؟!
- العفو يا باشا .

– أنا تاجر مخدرات وأضارب فى العملة يا زناتى ؟

– يا باشا أقسم . .

– أنا أقلد ماركات قطع الغيار ، وأستورد أغذية فاسدة ، وأهرب مرسيدس من الجمارك ، وأستولى على أراضى الدولة ، ولى علاقات مشبوهة مع عناصر إرهابية ؟

– يا باشا لست كاتب الشكوى .

– أنا أتعاون مع الإرهاب يا زناتى ؟ أهذا معقول ؟

– يا باشا . .

– كل هذا يا زناتى ؟

– لم أقل هذا .

– الشكوى قالت . .

– لست والله كاتبها .

– لكن البنت عرفتك .

– أقسم بالله العظيم . .

– لا تقسم ولا تهبب ، انس الموضوع كله ، وعليك بالصمت ، إياك والثرثرة ، إياك . . كلمة تفلت منك وأقطع لسانك . ومع ألف ألف سلامة يا شاطر .

(٤)

أنجوت يا زناتى ؟ ألن يسعى علوان خلفك ؟ ألن تُدبر لك مكيدة ؟ تذكر الآن ، . . أن بين مسوغات تعيينك ورقتين مريبتين ، الأولى . . استقالة غير مؤرخة ، والثانية ورقة وقعتها على بياض ، يحتفظ بهما الباشا

فى خزانته السرية .. مثلك مثل غيرك ، فهل تعرف معنى ورقة على بياض؟ وتذكر المناخ السائد وهذا ليس رجلاً عاديًا .. إنه معجون بماء العفاريت ، وحتى تتضح الرؤية ... عليك بالصبر والصمت كما أوصاك ، والعيون تحاصرك والأسئلة تلاحقك والإشاعات تنتشر بسبب مكوثك الطويل مع الرجل ، الزناتى اختلس ، الزناتى غرر بالفتاة ، الزناتى صار من ميلشيات الباشا ، الزناتى مرشح لمنصب رفيع ، الزناتى لهف عمولة وانكشف .. وانت صامت . لا تنفى ولا تؤيد .. والأستاذ خليفة ، بلدياتك ، وصديقك ومديرك المالى .. قلق من صمتك وعبوسك . ويريد تفسيراً :

– خيراً يا صديقى ؟

– خير ، كله خير .

– انشغلت عليك ؟

– لا تقلق .

– ما الحدوتة ؟

– موضوع خاص .

– سر يعنى .

– تقريباً .

– انت وشانك .

إيّاك والبوح ، كلاب علوان حولك ، فيلغضب خليفة والعالم كله ، لو هتكت السر .. هلكت انت وسامعك ، إنه يراقبك الآن ويحسب أنفاسك، لو نفخت ضجراً قد يفسره عصيانًا ، لو ضحكت قد يفسره تشفيًا ، لو أطلقت نكته قد يؤوله غمزاً ، لو لبثت عابسًا قد يعتقدك حاقداً وتفكر فى قفزة انتحارية ، اجلس فى هدوء وكن طبيعيًا ، وانتظر ، فأنت لا تدرى فيم يفكر الآن ، وتجهل مصدر البلاء الآتى ، ونوع العقاب . نعم أنت واثق من

موقفك ولا توجد بطحة على رأسك ، وماضيك ناصع مثل حاضرك ، لست متطرفًا يمينًا أو يسارًا ، ولا حزبيًا ، لكنه لو سعى وراءك ، لن يعدم الوسيلة والسبب ، وفى صمتك نجاتك .. ها .. ها .. أنت مخدوع وواهم لو تصورته عفا عنك فهذا صنف من البشر ، لا يعترف سوى باللونين ، معه أو عليه ، وأنت الآن مناوئ خطير ولابد من تصفيتك انتبه يا زناتى ، خذ بالك من السيارات المسرعة ، اعبر الطرق وسط المجاميع ، لا تمش فى الشوارع الجانبية ضعيفة الإضاءة ، احلق ذقنك يوميًا ، تجنب مساجد الإثارة ، ومناطق التوتر ، لا تحضر أفراحًا شعبية تطلق فيها الأعيرة النارية ، لا تغادر مسكنك ليلاً ، لا تتسلم رسائل وطرودًا مجهولة ، لا تستجب لاستدعاءات مريبة ، تجنب المناقشات السياسية الساخنة ، لا تقرب من المتظاهرين ، مهما كان هدفهم نبيلاً ، تأكد من صلاحية أنبوبة البوتاجاز قبل انصراف العامل، لا تقف فى شرفة منزلك ، لا تركب المصاعد بمفردك، تأكد دائمًا من وجود بطاقتك الشخصية لا تهب إكراميات لرجال الحكومة ، دقق فى كل الأوراق التى تعرض عليك . مسكين انت يا زناتى ، صار ليلك أرقًا ونهارك قلقًا ، تكلم نفسك وتراقب الزملاء والعملاء ، وتفتش جيوبك وأدراجك وعلبة سجائرك ولا تشرب كوب ماء فى المؤسسة ، وقد نبه عليك بالصمت . لا لكى يعفو عنك ، وإنما ليفترسك فى الكتمان دون أن يشعر بك أحد . أنت فى مأزق خطير ، نهارك هواجس ونومك كوابيس ، وقد سألتك زوجتك عن هوية من تهلوس بهم فبح لها يا زناتى .. دعها تعرف سرك حتى تدافع عنك لحظة الخطر الداهم ، اذهب لقسم الشرطة وحرر محضرًا بوساوسك أو عليك بالنائب العام ، وتحصن بمكتبه وأنت وحظك .. إما .. وإما .. الق بنفسك أمام موكب الرئيس مستنجدًا .. فقد يستمع إليك لو نجوت من رصاص حراسه فى زمن الثقة المفقودة .. ولم لا تلجأ للأستاذ خليفة أعز

أصدقائك ، ها هو .. جاء يسعى إليك وبيده بعض الأوراق ، بُح له يا زناتى، لا تبح قل ، لا تقل ، انطق ، إياك .. إياك ..

– مالك يا زناتى ؟

– مالى ؟ عال العال .

– وهذه العقود ؟

– مالها ؟

– لماذا لم توقع عليها !

– وما علاقتى بها .. لا بعت ولا اشتريت .

– يا سيدى وقع وخلصنى .

– دع غيرى يوقع .

– ولكنك المسئول .

– آسف .

– يا أستاذ هذه مسألة روتينية .

– لن أقدر .

– لماذا ؟

– بها ثغرات ولخبطة .

– وما الجديد ؟

– أنا خائف .

– خائف ؟ مم ؟ الحكومة حكومتنا والبلد كلها فى جيب الباشا .

– أرجوك .

– مالك يا زناتى ؟

– أنا متعب جداً .

– مشاكل زوجية أم صحية ؟

- لا هذا ولا ذاك .

- انطق .. مالك ؟

- أنا متعب ، أرجوك دعنى وشأنى . الله ، .. دعنى يا أخى فى حالى .. فلقتونى . جننتونى ، ملعون أبوكم واحد واحد ..

- يا ساتر يا رب .. أتبكى .

الزناتى تفكك . تبعثر وصار محالاً إعادة تجميعه بسهولة .. دموع .. دموع، والأستاذ خليفة أصيب بالهلع خشية بوح الزناتي بما لا يجوز وسط العيون الراصدة ، والآذان الصاغية تسلل به ، بسرعة وفر بعيداً .. ودخلا أقرب كازينو قابلهما ..

(٥)

شربا ليمونًا مثلجًا ، تنفسا هواءً نقيًا ، تأملا النهر ، والمراكب والعشاق ، تذكرا الشباب والحب والزمن الجميل ، تلاشى عنهما وجه علوان الكئيب ، زال التوتر ، الآن يمكن إعادة ترتيب الزناتى .

- هه .. كيف الحال ؟

- أفضل .

- مالك يا زناتى ؟

- أنا فى أزمة .

- والسبب ؟

- أنا غبى .

- انت ؟ لماذا ؟

- ورطت نفسى فى مصيبة .

- اختلست ؟

- أنت تعرفنى جيداً !

- قبلت عمولة من وراء ظهر الباشا ؟

- ولا هذه سكتى .

- تجسست على وطنك ؟

- لصالح من وقد انتهت الحروب ؟

- سربت أسرار الباشا للصحافة .

- تقريباً .

- يا مجنون .. أفعلت هذا حقًا ؟

- لا .. كتبت شكوى .

- ضد من ؟

- ضد الباشا ؟

- أى باشا .. بتاع المعارضة ؟!

- بتاعنا .

- الباشا .. قصدك .. يا خبر أسود .. يخرب بيتك يا مجنون .

خليفة ، تشابكت سلوكه ، تفكك مثل الزناتى ، تعارك مع الذباب فوق أنفه ، سب الجرسون لتقاعسه عن إحضار مشروب لم يطلبه أصلاً ، وبخ عاشقين متلاحمين ، طارد قطة وديعة تمسحت به ، أشعل سيجارة ، فركها ، كاد يلكم الزناتى . استرد نفسه بعد حين ، استغفر ، هدأ ، شرب ماءً كثيراً ، استمع للتفاصيل مذهولاً ، هذا الأبله ، إنه يُخرف بالتأكيد ، أفى هِذه المدينة من يجرؤ ؟ الباشا يعنى المؤسسة ، يعنى هذا الكم الهائل من المواقع والمناصب ، والمصالح والأموال .. طيب .. لماذا ؟ وفى هذا التوقيت السيء ، والبلد كلها على كف عفريت ؟!

(٦)

لحظة مرت ، ران فيها صمت مهيب ، وكان كارثة كونية وقعت على غير توقع ، الزناتى يتارجح بين راحة ما بعد البوح ، وخوف نتائج الإفشاء ، وخليفة ، قلق مرتبك ، مشوّش ، مرعوب رعبًا لم يشعر به من قبل .. نظر مرتابًا للجالسين ، القادمين ، السائرين ، الجرسونات ، وحتى للأشجار والطيور العابرة ، فحص المنضدة ، بدقة أكيد .. اكيد ثمة سلك ممتد أو متلصص كامن ، أكيد لعلوان تواجد رصدى بشكل ما :

– يخرب بيتك يا زناتى ، أوقعت نفسك واوقعتنى فى مطب ..

– الباشا يا زناتى ؟

– نعم .

– أتعرف من يكون ؟

– طبعًا .

– ومن كان ؟

– وهل تظننى اجنبيًا ؟

– واحتمال من سيكون ؟

– يا سيدى أعرف .

– انت مجنون إذن ؟

– كانت مجرد شكوى من مجهول .

– لكنه كشفك .

– دبرنى .. ما الحل ؟

– اتسالنى الآن ؟

– استقيل ؟

– تعودناه يقيل ولا يقبل استقالات .

– أأعترف له نادمًا ؟

– لن يغفر .

– أأهرب للخارج .

– سيطاردك ويستردك من بطن أمك .

– ليس أمامى سوى الرئيس .

– وأين أدلتك القاطعة .. هذا الداهية ورطنا جميعًا ولم يوقع على مستند واحد .. سينجو ويفلت ونهلك نحن .

– أنت تسددها .

– إنما أبصرك بالحقيقة .

– لم يبق غير الانتحار .

– الروح عزيزة .

– كيف أتصرف إذن ؟

– دعنى أفكر .

– تفكر ؟ فيم ؟

– امنحنى فرصة يا زناتى ؟

(٧)

ورطة وقع فيها خليفة ، عيون علوان رصدته الآن مع الزناتى ، متعاطفًا ، متهامسًا ، مصاحبًا ، وعليه بتقديم تبرير مقنع لملابسات الموقف ، فهل يتدنى مثل الجميع ويشى بالزناتى ؟ أم يصمت فيهلكان معًا ؟ من يخون

.. الذى يطعمه أم من وثق به ؟ وأيهما على حق ؟ لا يا خليفة .. لا تغالط نفسك وضميرك .. والسكة أمامك واضحة ؟ وتدرك جيداً من يكون هذا الملقب بالباشا ؟ أنت نفسك كدت تفعلها يومًا حين اكتشفت أن واحدة من أخطر الصفقات تمت باسمك ودون استشارتك ، مثلما تتم عشرات التعاملات الشائكة بأسماء العاملين من خلف ظهورهم ، حتى فعلها هذا الأحمق الشجاع ، وليس من الذوق والحكمة وحق الصداقة أن تشى به أو تتخلى عنه . وفى النهاية ، اتفقا على اللقاء ليلا لمزيد من التشاور والتدبر قبل مواجهة الباشا .

(٨)

- أين أنتما ؟
- قلبنا عليكما الدنيا .
- كدنا نطلب النجدة .
- الباشا سأل عنكما عشرين مرة .
- وعلوان ثائر .
- بسرعة يا سادة .

وقعت الواقعة ، قادهما علوان بنفسه للعرين ، تهامس مع الباشا وخرج، وقفا ينتظران ، أومأ لهما مرحبًا ، أشار لهما بالجلوس ريثما ينتهى من المكالمة الهاتفية ، تعجبا . فليس من عادته - ومهما كان نوع المكالمة - التحدث فى وجود الغير ، ودائمًا يحيط لقاءاته ومشاويره وتعاملاته وهوية زواره بالسرية ، وكأنه مازال فى موقعه القديم ، الزناتى استسلم ، سلم مصيره للرجلين ، وخليفة الآن ، فى هذه اللحظة . ممزق حائر .. إذا سأله

بماذا يجيب ؟ .. وإذا لف ودار كيف يتصرف ؟ المكالمة طالت ، وخليفة يوشك على النطق .. يحرك شفتيه .. يحاول مقاطعة الباشا .. انتظر يا خليفة .. يا سعادة الباشا .. صبرًا يا خليفة ، ماذا يدور فى رأسك ؟ دعه يفتح الباب ، يا .. سـ .. عـ .. انتظر يا رجل ، يبدو أنك ستفعلها ،إياك يا خليفة وخيانة هذا المسكين الذى وثق بك ، ستندم طول عمرك ، اصمت وكن شهيداً ، مت واقفًا كالأشجار ، أو واجهه وكن بطلاً ، افتح ملفه كله واكشفه ، عريه ، افعلها ، قلها ، هذا بشر مثلك ، ما الذى يميزه عنك ؟ هو الذى ينبغى أن يخشاك ، امسح عرقك ، تماسك ، لا ترتعش ، يا سعادة ال.. يضم يديه ويطالبك ، بالانتظار ، مازال يتحدث ، سعيداً ضاحكًا يتحدث ، بلا خجل يستعيد سهرة الأمس . يا رجل يا عكروت هلكت البنت .. كادت تموت تحتك . من ؟ المغربية .. حالاً سأطلبها لك بالفاكس؟ ماشى يا سيدى .. ما رأيك نجعلها الليلة سهرة عربية .. فى مزرعتى . لا طبعًا . أوص لنا على حتة حشيشة غبارة .. طيب . طيب .. فى انتظارك.. هى بالذات .. وماله . وأمها كمان ، على فكرة يا باشا .. الموضوع إياه طلع فاشوش . أى والله .. والزناتى هذا من أحسن رجالى ، إنه أمامى الآن .. طبعًا تحريت وتأكدت .. وبنت الكلب طلعت نصابة .. عليك بها .. وضّبوها واقطعوا لسانها .. شكرًا يا باشا .. مع تحياتى ..

الباشا ترك مكتبه بعد هذه المكالمة المكشوفة ، رحب بهما بحفاوة ، جلس معهما فوق مقاعد الضيوف وكأنها من كبار الزوار ، طلب لهما مشروبًا ، ضحك معهما ، قال نكتًا وقفشات ، أزال الحواجز ، حدثهما عن مشواره الطويل بعد ترك الوظيفة ، وكيف غامر وباع كل أرض العائلة ، وكيف استدان من البنوك وتاجر وسهر وكافح بشرف ونزاهة فبارك الله فى ماله وصار الآن كما يعرفون ، وقد قرر الآن إنصاف الذين كافحوا معه ،

ترقيات، زيادة مرتبات ، سيارات ركوب لجميع العاملين ، شقق مخفضة بالقسط المريح ، سلف بدون قيود ، مصيف مجانى ، حج وعمرة بالمجان ، ثم أطلقها كالقذيفة :

– وأنت يا أستاذ خليفة قررت تعيينك مديراً مسئولاً لفرع المؤسسة فى نيروبى ولك عشرة فى المائة نسبة من الأرباح ، أما الأستاذ زناتى .. فسيتولى الإدارة المالية كلها مكانك مع تحويله سلطة التوقيع الثانى على الشيكات .

القرارات صدرت وطبعت وصورت ووزعت فى دقائق ، المؤسسة ظاطت، الأيدى تتخاطف القرارات ، بسمات ، تهانى ، حلوى ، مرطبات ، ياه .. الرجل فعلها أخيراً وفتح خزائنه للتعساء سحابات كدر ، غيوم سوداء كثيفة حامت فوق الرجلين ، هواجس نهشت الصدور ، شياطين الشك رقصت امامهما ، تذكرا المياه التى تقدم للخراف قبل ذبحها ، أين الصدق فى هذا كله وكيف تم الانقلاب خلال ساعات ؟ وهل كانت المكالمة التى برأت الزناتى صادقة أم ملفقة ؟ أهى محاولة ذكية للتفريق بينهما ؟ احتواء؟ رشوة ؟ مناورة تكتيكية ؟ علامات استفهام هائلة .. بدأت تتراجع من ضغط أفراح الفرحين ، وعلوان أضاف بعداً جديداً لقتل الهواجس ، افتعل غضبًا وتصنع ثورة ، سب الباشا على مسمع الجميع :

– هذا الرجل يا جماعة قليل الأصل ، عديم النظر وأنا كنت أحق من خليفة بإدارة مشروع نيروبى بصفتى الأكبر سنًا وخبرة .. خسارة فيه الخدمة .. لو أخلصت لراقصة لقدرتنى عنه .. ماذا أقول .. منه لله ..

كل الشكوك تراجعت وتبددت بعد ثورة علوان ، فخرج الزناتى مطمئنًا، لا يتلفت ولا .. ، عبر الطرق دون أن. ، دخل مسجداً وصلى بلا. ، ناقش موتوراً وقال ، رأى مظاهرة طلابية فاقترب دون . ، أحس

لأول مرة بأنه مواطن حقيقى ، نسى ما كان وفكر فيما سيكون ، عاد لبيته بأكياس الفاكهة ، والحلوى ، داعب صغيرته ، طوحها فى الهواء مرات ، حن لرفيقته بعد طول ترك ، قرصها ، طاردها بشوق بين المطبخ والصالون ، وهى سعيدة بعودته ، تراوغه .. يا راجل تحشم .. البنت ترانا والليل أمامك طويل ، أكل بشهية ، شاهد فيلمًا وسمع أغنية جماعية تقول . وطن ياوطنى الـ .. ، مزق كل صحف المعارضة التى شحنته وأمرضته ، أخذ حمامًا دافئًا ،حلق ذقنه ، تعطر ، عزف مع رفيقته أنغامًا رائعة على تنويعات عشقية ، حتى ضج السكون وأن السرير ، بلغا القمة فتدحرجًا وتشقلبا عاريين ، وكأنهما يعيشان ليلتهما الأخيرة ، وفى الصباح، صلى ودعا للباشا بالصلاح وطلب من ربنا أن يرشده للطريق القويم ، ثم قبّل صغيرته وعانق رفيقته ، عصرها بقوة ، منحها قُبلتين ، تابعته ، اقتنصت الثالثة على باب الشقة ، أسرعت تلوح له من النافذة ، راقبته حتى توارى فى الشارع الرئيسى ، لكن الزناتى .. لا ذهب إلى المؤسسة كعادته صباح كل يوم ، ولا عاد إلى بيته بعد الظهر كعادته كل يوم، أمر ما ، حدث فى المسافة الزمنية المحصورة بين الثامنة صباحًا والرابعة مساء. الزناتى فص ملح وذاب ، وكأنه لم يكن ، سحابة مرت فى فضاء الكون ، دخان تبدد ، الزناتى ضل جهاراً نهاراً والشمس كاسطع ما تكون . الزناتى ضل وهو فى كامل وعيه وتمام صحته ، الزناتى ضل فى مدينة من مدن الأمان ومحروسة برجال الأمن ، لا ترك رسالة ولا استغاث ولا شاهده شاهد ، فأين يكون يا ترى ؟

(٩)

كل الدلائل ، تبرهن ، أن العاصمة ، يوم اختفاء الزناتى ، كانت هادئة

تمامًا ، وعلى امتداد القاهرة الكبرى ، لم تقع حوادث تذكر ، مجرد مشاجرات صوتية ، اختناقات مرورية عادية ، شتائم متبادلة بين هذا التعيس وذاك الأتعس ، زحام نمطى أمام أفران الخبز البلدى وحول عربات الفول والكشرى ، تراشقات معتادة بين مشجعى الناديين الكبيرين ، وأكداس من البسطاء يجلسون فاغرى الأفواه وهم يستمعون لخطباء المساجد الذين يزينون لهم الجنة التى هناك وعذاب القبر ونعيمه ، والناس ، كل الناس ، متسمرون أمام أجهزة التلفاز ، التى تبث لهم تلك المسلسلات التخديرية العبيطة ، وأغنياء الزمن الفالت يخططون للصفقات والسهرات

أبدًا لم يكن يومًا من تلك الأيام النادرة التى تمور فيها النفوس ويفلت المارد من محبسه .. عاتيًا كاسحًا ، مثل يوم الثورة الكبرى ، أو يوم يناير الأول .. الحريق والهول ، أو يومى يناير الثانى . الانفجار والغضب ، ولا مثل أيام خروج طلاب الجامعات محتجين على موقف ما .. ولا يومًا قوميًا حزينًا مثل يوم موت الزعيم الأول ، أو ضبابيًا مائعًا مثل يوم مصرع الزعيم الثانى . كان يومًا ربيعيًا جميلاً ، فآخر الانفجارات الناسفة ، وقعت قبل هذا اليوم بكثير ، وآخر الطلقات الطائشة ، دوت بعد هذا اليوم بكثير فكيف اختفى الزناتى فى هذا اليوم المثالى ؟! هل سقط داخل بالوعة مجارى مفتوحة ؟ أكان مخاويًا فخطفته الجان ؟! أكان عضوًا فى المافيا فتمت تصفيته ؟ هل خطفه عالم مجنون ليجرى عليه تجارب محظورة ؟ . هل وقع فى قبضة عصابات المتاجرة فى قطع الغيار البشرية ؟ الزناتى رغم كافة الجهود التى بذلت ومازالت تبذل .. لا أثر له إطلاقًا ، بهذا أفادت تقارير وسجلات الأجهزة المسئولة عن مصائر المواطنين ، فلا عثر عليه غريقًا أو مقتولاً أو ميتًا ، ولا شوهد هائمًا من أثر فقدان الذاكرة ، ولا ثبت هروبه من المنافذ وأسلاك الحدود ، ولا أعلنت اى جهة مسئوليتها عن خطفه طلبًا

للفدية ، ولاثبت ان هبوطًا قد حدث فى خط سيره المعتاد فانشقت الأرض وابتلعته فأين هو ؟!

(١٠)

الأستاذ خليفة جُن ، أكيد جن ، لأنه لم يكتف بالجهود الرسمية المكثفة ، ولا بالإعلانات التى نشرها الباشا فى جميع الصحف وبرامج الإذاعة والتليفزيون ، وإنما استأجر مناديًا تقليديًا ليجوب الحوارى والأزقة والنجوع والكفور والبلاد . . لينادى صائحًا :

– (موظف تايه يا أولاد الحلال) .

لنفترض أنه عاقل ، بماذا تفسر تصرفاته المهزوزة ورفضه السفر إلى نيروبى ومعاملة الموظف الجديد الذى احتل مكتب الزناتى بتحفظ وخوف وينعته بالباشا ويقدم له المشروبات بنفسه وعلى حسابه ؟ وتفاقمت حالته فظن الناس جميعًا من المخبرين فمنحهم لقب الباشوية بسخاء من باب الحرص . .

وأخذت حالته تتأخر ، ينسحب ، يتراجع ، يتغيب ، ثم انقطع عن العمل ، ولما بلغ الذروة ، الذروة تمامًا ، وتساوى عنده الموت بالحياة ، جلس فى هدوء وثقة ، وكتب أطول وأغرب شكوى صور منها عشر نسخ وضعها فى عشرة مظاريف ، وقعها باسمه الصريح ، صدرها من عشرة مكاتب بريد ومن أماكن متباعدة ، أرسلها لعشر جهات رسمية ثم تحصن بغرفته منتظرًا بقلق بالغ ، أن تفلت ولو واحدة ، من الرسائل العشر ، من الحصار الجهنمى ، وتصل بمعجزة لمن يهمه الأمر ، لكن رسالة منها ، ردت إليه لعدم وضوح عنوان المرسل إليه ، وكانت موجهة إلى السماء . .

موقعة فاصلة

صارت العيون تحاصر سليمًا ، عيون ضفدعية الشكل ، شامتة النظرة ، قذائفية التوجيه ، تخترقه ،تعريه ،تربك خطواته ،تزاحم أحلامه ، والتعليقات الجارحة تثقب اذنيه ،تمرضه ،تنطلق نحوه من سكان العمارة ، أصحاب الحوانيت ، تلاميذ فصله الدراسي، الولد المنافس.. يتزعم المشاكسين ، يناوشه ، يطرح الأسئلة المريبة المغرضة ..

- سليم .. لماذا جئت بسيارة أجرة ؟

- مجرد ظروف .

- وأين سيارتكم المرسيدس ؟

- لا ادرى .

- لا تدرى .. ها .. ها .. خطفها الغراب وطار .

التلاميذ يصفقون ، يدورون حول سليم وهم ينشدون :

- خطفها الغراب وطار .. طار .. طار يا سليم وراح .. راح .

- سليم .. ماذا يعمل أبوك الآن ؟

- مازال فى الحكومة .

- وهل هو فى أجازة ؟

- لا ادرى .

- لا تدرى .. أنا أقول لك .. كان أبوك وكيلاً لوزارة هامة وهو الآن فى الباى .. باى .

التلاميذ يتقافزن يسخرون :

- باى باى يا سليم .. باى . باى . ما طار طير وارتفع .. إلا كما طار

وقع ..

سليم يهاجمهم ، يندفع ملاكمًا ، يتكاثرون عليه ، يزيحونه بعيداً ، ينسحب غاضبًا لايدرى لماذا يقسون عليه ؟ منذ أيام كانوا يهابونه ، يتقربون إليه ، أوصل الكثير منهم بالمرسيدس رغم اعتراض السائق ، عشرات الطلبات والوساطات مررها لأولياء أمورهم عن طريق والده ، أبداً لم يتعال عليهم ، كان صديقًا ودوداً . فما هى الحكاية ؟ وما السر الذى يعلمه هذا الولد الخبيث المغرض . فأشاعه بين التلاميذ ؟ ..

والجدة الحنون .. لماذا باتت حزينة وانقطعت عن زيارته ؟ صباح كل يوم جمعة كانت تأتى بانتظام ، تنادى عليه عبر جهاز (التليتوك) من باب العمارة أو ترسل إليه البواب ، تصحبه للنادى يقضى معهايومًا سعيداً ، لكنها تأبى الصعود لتحية أبويه .. فما سبب هذه القطيعة ؟ وما العلاقة بين حزنه وسخرية الأولاد وما حدث منذ أيام مضت ؟ ففى ليلة سوداء ، لن ينساها مطلقًا ، هاجم بعض الرجال الجهمين شقتهم ، فتشوا خزينة أبيه الخاصة ، بعثروا أوراقه ، اقتحموا غرف النوم ، دنوا وصنفوا الموجودات والمنقولات ، اللعب ، الحلى ، السجاجيد ، الأجهزة الكهربائية ، سحبوا رخصة السيارة ، وكانت تعليقات بعضهم تقطر سمًا :

- ولا الملوك .. فى كل غرفة .. تلفاز وجهاز تكييف .

- والسجاجيد .. كلها كاشان حرير ..

وسليم كان يرتعد ، تعلق بأبيه باكيًا عندما اقتادوه معهم . نهرته أمه فى غلظة :

- كُن رجلاً .

- ماذا جرى يا أمى !

- اهدأ يا سليم واطمئن .

– أين ذهبوا بأبى ؟

– سيعود .. لا تشغل بالك .

– ماذا فعل ؟

– لا شئ .. مجرد وشاية حقيرة .

– سأستدعى جدتى .

– جدتك تكرهنى .. دعك منها .

سليم دخل دائرة الحيرة الضبابية ؟ ما الوشاية ؟ ولماذا رجع أبوه بعد أربعة أيام ولزم الشقة والصمت ؟ يدخن بكثرة ، يقرأ الصحف باهتمام ، يفتح الباب بحذر ، يقاطع الهاتف ، يتهامس مع أمه ، طرد السائق والشغالة، لا يستقبل زواراً سوى المحامى وفى يوم مزق إحدى الجرائد ثائراً ثم بعث لشراء نفس الجريدة .. فما الخبر الذى أثاره ؟ سليم متشوق لمعرفة السبب تحيّن فرصة ، التقط الجريدة ، يقرأ بإمعان ودقة ، صفحة صفحة سطراً سطراً ، بعد عناء توقف أمام خبر عليه علامة بالقلم الأحمر : فى تكتم شديد ، يجرى جهاز المدعى الاشتراكى تحقيقًا واسعًا لمعرفة مصدر ثروة مسئول كبير ، ومن المتوقع أن تسفر النتائج عن فضيحة مالية كبرى ..

لماذا علم أبوه الخبر ؟ وهل ثمة علاقة تربطه بالموضوع المنشور ؟ لا .. لا .. أبوه رجل عظيم .. ذو شأن .. إنه لا يصدّق لكنه حائر ، ممزق .

– ماما .. صارحينى لقد كبرت .

– ليس هناك ما يقلق .. اذهب لتذاكر .. يبدو أن جدتك تشوش عليك.. هذه العجوز قلبها أسود .

دائمًا تقذف به للحيرة ، لا شىء أمامه واضح ، وهو عاجز عن مواجهة العيون الشامتة ، .. فهل يعتكف فى البيت مضرباً عن الدراسة والشارع ؟ ليس أمامه بديل .لكن أمه تدفعه للخروج صارخة : هو فى إيه ؟ ما فيش

حاجة . سليم يتحرك كاللص ، يتجنب البواب وأصحاب الحوانيت وسايس الجراج والخادمات ، ثم يقف مرتعداً أمام باب المدرسة ، ها هو البواب الذى كان يهرع ليفتح له باب المرسيدس ويحمل عنه الحقيبة ، يقف ساخراً وعيناه على اتساعهما ، يتراجع سليم ، يهرب . يجوب الشوارع ، المتنزهات ، المتاحف ، وكلما ضاقت به الدنيا ، لجأ إلى دفء جدته ، وهو فى الطريق إليها ، التقى بامرأة ، حاولت تقبيله ، تجنبها ، لحقت به وقالت له بصوت كالفحيح وعيناها تمزقان بقايا صلابته :

– إزيك يا سى سليم .. وإزى ماما .. والنبى قلقانة عليكم .. عين وصابتكم يا حبيبى .

يبتعد . يجرى . يرمى نفسه فى حضن الجدة ..

– ماذا جرى لنا يا جدتى ؟ .

– انتم بخير يا ضنايا .

– لماذا لا يذهب أبى للعمل ؟

– كل الناس يرتاحون أحياناً .

– سابقى معك يا جدتى .

– أمك لن توافق .

– إذن . تعالى وعيشى معى .

– إلا هذا .

يوم انتقلوا لشقة برج النيل الجميلة الواسعة ، رفضت جدته بشدة الانتقال معهم ، وفضلت البقاء بمفردها فى شقة العائلة بالحى القديم . سليم يسترجع سنوات مضت محاولاً ربط الخيوط ببعضها ، عندما كان فى الصف الأول الابتدائى ، كانوا يعيشون هنا ، يتعلم فى مدرسة الحى الحكومية القريبة ولديهم سيارة صغيرة يسمونها (عزيزة) ، وقبل ذلك كان

والداه يذهبان للعمل معًا ويتركانه مع الجدة ، فأرضعته حنانها وحبها وحكاياتها البسيطة الجميلة وعلمته كل ما تؤمن به ، فالتصق بها وأحبها أكثر من أبويه ، ثم تغيّرت حياتهم ، ازدحم دولابه باللعب والملابس حولوا أوراقه لمدرسة خاصة ، الطعام زاد بوفرة ، الأثاث تجدد ، ارتادوا المصايف ، استبدلت السيارة مرتين ، قعدت أمه عن العمل ، وكلما أتى أبوه بشيء جديد ، ارتفع حزن جدته درجة وهتفت مستجيرة :

– استرها معانا يارب .

فتلوى أمه بوزها وتقول فى همس :

– يا ولية بطلى قر .

لكن حزن جدته تفجر غضبًا واعتراضًا يوم هلت السيارة المرسيدس وبهرت سكان الحى .. من يومها بدأت مأساة سليم مع العيون الملاحقة المطاردة . يذكر سليم جيداً كلمات الجدة حين تقرر انتقالهم لشقة برج النيل :

– حد الله بينى وبينك من النهاردة .. خليك ماشى وراها لما نشوف آخرتها .

الجدة بالتأكيد تحتفظ بالسر .. فلماذا تضن عليه وقد عودته على الصدق؟ وهو فى مسيس الحاجة لضوء يواجه به هذه العيون التى أمرضته ، كل يوم يفر من المدرسة هربًا من عيون الأولاد وألسنتهم ، ولا يطيق البيت . لأن أبويه دائمًا يتهامسان ولا يحسان بهول معاناته ، وكل ما فعلاه ، أنهما سلماه لطبيب نفسى ليقع فريسة لكتبه وتجاربه وجلساته ، دون أن يصل بعد طول علاج لسر هذه العيون المحاصرة ، واستمرت أزمة سليم الفرارية تستفحل ، ودائمًا يعثرون عليه ويعيدونه للبيت والطبيب ، وبعد عامين ، طويلين ، ارتفعت الزغاريد الهستيرية فى شقتهم وانهمرت عليهم

برقيات التهنئة بالبراءة ، وخلال أيام ، عاد كل شيء لطبيعته ، الوظيفة والسيارة والرخاء . وفى الحفل الكبير ، الذى أقيم احتفالاً بهذه المناسبة كان سليم ، يبحث بقلق عن جدته بين المهنئين المحتفلين ، لم يجدها ، تخلفت ، فأدرك أنها مازالت حزينة وغاضبة وغير راضية عن أبيه مما عمق إحساسه بالقلق والتوتر وظل سؤاله :

– ما الذى ارتكبه أبوه فى البداية .. لكى يبرأ بعد ذلك ؟ ومن وسط الزحام التقطت أذناه الرادرايتان حديثًا جانبيًا هامسًا بين اثنين من أصحاب العيون الضفدعية :

– رجل داهية . طلع بسهولة كطلوع الشعرة من العجين .

– وحياتك .. المسائل مطبوخة .

– طبعًا . لو أُدين .. ستنكشف أمور وأمور .

– آه يا بلد .

سليم ينسحب بعيداً ، ينتابه الغثيان من حديث الرجلين ومن كل المدعوين والداعى ، يلوذ بغرفته مستدعيًا ملائكة النوم ، يغفو ، يصحو ، يغفو ، تهاجمه عشرات ، مئات ، الآلاف من العيون الضفدعية ، يتغطى ، يتقلب ، يضئ النور ، تهاجمه العيون من الحوائط والسقف والنافذة عيون حمراء شيطانية ، تخنقه ، يقوم فزعًا ، يصرخ ، يندفع من الغرفة هاربًا ، يفتح باب الشقة ، ويركض هاربًا ، يطوى درجات السلم ، صوت أبيه يستنجد بالبواب ليحول بينه وبين الشارع ، يكبلونه ، يسرعون به إلى الطبيب ، فيتعرض كالعادة لجلسة وحقنة مهدئة ..

أثناء العودة من العيادة ، كان سليم يرقد فى المقعد الخلفى للسيارة المرسيدس ، يستعيد بالتدريج إحساسه ، بعد زوال أثر المخدر ، سمع أباه يقترح إدخاله مصحة نفسية عملاً بنصيحة الطبيب وأمه تعترض لأن وجوده

بينهما أفضل . قالت بعد تنهيدة عميقة :

- لو نعرف مم يشكو ؟

- أمره محير .

- وفرنا له أسباب الحياة .. ولا ينقصه شيء .. أى شيء .

- وضمنت له المستقبل .. وضعت مليون جنيه باسمه .

تنبها لحركة فى المقعد الخلفى ، سألاه بصوت واحد عن الحال ، فلم يتلقيا جوابًا . استأنفا حوارهما ، سمع أمه تواصل الحديث :

- ياه كنا .. فى كابوس مرعب .

- هذا قدر المخلصين . . .

- بالمناسبة .. كم طلب المحامى ؟

- مليون جنيه .

- يا خبر .. مليون ؟

- انتهازى .. يزعم أن له شركاء .

- وهل تدفع هذا كله .

- الشيكات كلها على بياض .. وكما تعلمين ، أرصدتى فى البنوك المحلية صفر ، هذا أو السجن . لابد من التضحية .

- وماذا عن المستقبل ؟

- لا أمان فى هذا البلد . نسافر أحسن .

- أليس الحكم نهائيًا ؟

- ولو ..

- فرنسا أم اليونان ؟

- سويسرا آمن .. وأموالى هناك .

سليم كان يصغى بانتباه وتركيز فحصل على الإجابة الصحيحة للسؤال

المعلق . كاد يصرخ طالبًا منهما السكوت ، لكنه فضل الرد عليهما بشكل آخر . فقال بإصرار وحسم :

- بابا . اذهب بى إلى جدتى .

- فى هذا الوقت المتأخر ؟

- أريد جدتى .

- غداً يا حبيبى .

- الآن .

تدخلت أمه محتدة :

- كفاك دلعًا وعناداً .. قال غداً .. يعنى غداً .

- وأنا قلت الآن .. يعنى الآن .

قالت محرضة :

- لا تطاوعه .. لأنها أفسدت الولد .

قال سليم بصوت مهدهد :

- الآن يا بابا .

- حاضر ..

رضخ الأب خوفًا من انتكاس الابن ، وعبّرت الأم عن عدم رضائها بالتأفف . اتجه بالسيارة للحى القديم واوقفها أمام بيت الذكريات وأمهله خمس أو عشر دقائق يسلم فيها على جدته . وقالت الأم بعصبية :

- (مسافة السكة يا سليم)

- مرت عليهما الدقائق بطيئة ثقيلة حتى استكملت العقارب دورتها الستين . تحرك الأب قلقًا ونادى من الشارع ومن مسقط المنور ، قلقت الأم فتبعته ، صعدا معًا وأحسا برجفة وخوف غامضين ،وجدا الجدة فى انتظارهما أمام باب الشقة فى تحد وغضب ، ولم تفسح لهما كى يدخلا ،

أشارت لهما بالانصراف لأن سليمًا نام منذ وقت ولا ينبغى عليهما إزعاجه.

تساءلت الأم فى غيظ :

- يعنى إيه .

- حاول الأب دخول الشقة فمنعته ، حاول بالقوة ، سدت الجدة الطريق بجسدها ، سحبت هراوة من خلف الباب ولوحت بها فى وجه ابنها مهددة :

- وتربة المرحوم لأكسر راسك واصوّت والمّ عليك الناس .. حرام عليكم .. جننتوا الواد وجننتونى . خللى بقى الفلوس تنفعكم .

- تراجع الأب للوراء مذعوراً مندهشًا :

- مش معقول .. مش معقول .

- تراجعت الأم أيضًا وهى تغمغم فى هلع :

- هى حصّلت .. هى حصّلت.

اندفعت الجدة وراءهما رافعة الهراوة فى حالة شروع . وهى تتقدم .. وهما يتراجعان .. يتراجعان والأرض تحتهما تهتز ، سليم يرقب الموقف بقلق ، ارتاح بعد انصرافهما ، قبّل جدته، قال لها متنهداً :

- تعبان قوى يا ستى .. عاوز أنام .. واقعد معاك على طول .

- فهيأت له الغرفة ، وطوقته ونامت بجواره ، وقررت ألا تتركه لهما بعد الآن فنام سليم نومًا هادئًا عميقًا لأول مرة دون أن تزحم أحلامه تلك العيون البشعة . وثمة عبارة ، كانت تتسلل إليه آتية من الطفولة البعيدة ، عبارة كان يودّع بها أبويه ، مطلاً عليهما من النافذة ، وهما فى طريقهما للعمل ، فى ذلك الزمن السعيد .

- باى باى يا بابا ... باى باى يا ماما. باى باى باى .

النزيف

قررت وقف إطلاق الرصاص اليوم ، طلبت أجازة عارضة وتخندقت . أعرف أنهم لن يكفوا عنى . سيواصلون تراشقهم . لكنها هدنة منفردة . قلت أراجع نفسى لعلى أخطأت . قلت أمنحهم فرصة لعلهم يتراجعون ويستحون . قلت حتى يبرد داخلى الذى يمور ويغلى .

تمددت فوق فراشى بكامل ملابسى . بكامل همومى ، تحديث أسلحة المواجهة أمر حتمى . ولا أنشد اليوم سوى الاسترخاء .. فمن يمنحنى هذا المطلب البسيط الصعب .. ها هى الزوابع تطاردنى فقد جاءت محتجة وطالبتنى بمغادرة الفراش فوراً لأنها تريد تجديد الهواء .. فهل أفتح النار على أحد أطراف النزاع . هى البادئة . عاندتها . فلتبق الغرفة بهوائها الخانق .

ادعيت النوم ، وهى مصممة ، فتحت النافذة أثارت ضجة لكنى مازلت ..

– قم .

لن أرضخ . لن أستسلم . القتال .. القتال ..

– قم يا أستاذ .

– لن ..

– والشغل ؟

– لن ..

– إجازة ؟

– تقريباً .

- وهى ؟

تجاهلت سؤالها وتجاهلتها . هم يدفعوننى للهرب إليها وهى تقذف بى إليهم . لم يبق أمامى غير الشوارع والمتنزهات والمتاحف ، وصحف المعارضة، وروايات المجانين ، وكتب التطرف وهذه الأغنية الرائعة :

زحمة يا دنيا زحمة .. زحمة وتاهوا الحبايب .. زحمة ولاعادش رحمة.. مولد وصاحبه غايب ..) .

ومازال السؤال معلقًا : من هو صاحب المولد فعلاً؟

تركت لها الفراش والغرفة وانتقلت للشرفة ثم للنافذة فليست هذه بالمعركة المشرفة وانشغلت بشعاع الشمس الملئ بذرات التراب . قربت رأسى للشعاع .. شعرت بالدفء نشطت بعض خلايا عقلى . أخرى ماتت، تلفت . كنت أرتجف طوال ساعات الليل من البرد والخوف والقلق ، لبثت أنتظر الصباح وجاء ولم يات بما أنتظر . وهذا يوم آخر كالذى مر والذى سيهل ولن تنتهى المشكلة إلا بقيام الساعة ، وكل ما أرجوه الآن بعض الراحة .. لكن الشغالة الصغيرة تطاردنى بتوجيه من التى لا تريح ولا تستريح :

- أكنس هنا ..

اترك لها المكان بهدوء .

- أنفض هنا .

انتقل لموقع آخر بسعة صدر .

- أرتب هنا ..

موقعى الجديد بجوار النافذة ، أتشبث به ، أستبسل ، لن تزحزحنى جيوش العالم عنه ، إنها حرب تافهة لا مناص من خوضها ، هم الذين أنهوا الحروب الكبيرة أو جمدوها .

المعركة بدأت . انا بعنادى وكبريائى ، وهى بنفوذها ، أليست قائد هذا الموقع وتعرف كل خباياه ..

– ابعد عن النافذة

– حين أريد ..

– تحرك قليلاً ..

– .....

– ما هى الحكاية ؟

– اسألى نفسك ؟

– ولماذا هنا ..؟

– مزاجى .

– مزاج أم أنها تشاغلك .

هذه البلهاء المتخلفة . هؤلاء المتخلفون البلهاء . ملأت المكان بالغبار . عبئوا المصلحة كلها ضدى . كانت المسالة محصورة بينى وبين المدير العام . انحازوا له . لا موقف لهم . غبار . غبار أزعجتنى بضربات عنيفة فوق الشلت القطنية ، من فضلك كفى عن هذا قبل أن أطلب لك شرطة النجدة. قالت شيئًا . تفوهت رصدت حركة شفتيها . م .. ج .. ن .. و .. ن . قمت بالرد عليها بنفس الطريقة الصامتة :

– (ولية هايفة) .

هل ارتفع صوتى قليلاً ؟ هل تكلمت فعلاً ..

– ماذا قلت

– لا شىء .

– قلت .. سمعتك .

– لم أنطق .

- قلته فى سرك .

إلاّ سرى ونواياى وأحلامى . كنوزى التى لا أكشفها لأحد . اسبك وأسبهم ، والذى أريده أقوله ، وكل خوفى أن يخترعوا ذلك الجهاز المنشود والذى سيكشف السرائر والضمائر ، يومها .. يا ويلى وويل الضعفاء من حملات الانتقام ، يكفى أن تفكر فتطير رقبتك . وإلى أن يحصلوا على الجهاز .. فلنفكر فى الشوارع الخالية بصوت مسموع . فتحت مع نفسى حوارًا حرًا جريئًا وقلت بأعلى حنجرتى :

- طظ فيهم .

سمعنى المخبر المرافق للدورية الكامنة فى شارع خلفى . قادنى للضابط..

- تمام يا افندم .. أمسكت بهذا يتكلم فى السياسة .

- كيف ؟

- كان يشتم ويقول طظ فيهم .

سألنى الضابط مستدرجًا :

- من تقصد ؟

- هم ..

- أنت رجل شجاع .. فقل لى .. من هم ؟

ضابط أبله مثل المخبر الأبله .. يا فالح .. لو عندى شجاعة .. هل كنت أكلّم نفسى ؟ هل كنت أتركهم ينهبون انتصاراتى ويسرقون بنوكى ويئدون أحلامى ويجعلون يومى كابوسًا وغدى سرابًا .

قال الضابط آمرًا :

- اسكت .

- يا سيدى الضابط .. هل أنت راض عن نفسك وعن ،

- اسكت أو اذهب .

- إنهم يستخدمونك ضدى مع أن مصيرنا واحد .
- يا عسكرى .. صوب بندقيتك نحوه .
- يا سيدى ..
- اذهب أو يقتلك .

هل أموت من أجل كلمات طارت فى الهواء .. لا .. لا .. إنى ذاهب . لا تفعل أرجوك . فما العمل الآن والكلام حتى فى الشوارع الخالية صار خطراً ، لم يبق سوى الصحراء والغرف المغلقة .

- هل تكلم نفسك ؟
- هواية ..
- هواية أم جنون .
- اخرسى .

تشاجرنا . قالت وقلت . قذفتها بشىء فى يدى . قذفتنى بالمضرب . قذفته بالقلامة ، لم يرد استشهد بالمنافقين الذين أضافوا وهولوا . حول أوراقى للمدير العام ، حولها للشئون القانونية ، حولتها للجنة الثلاثية . خفضوا درجتى ، صرت موظفاً عادياً وهذا ما كان يسعى إليه الذى ضربته لكى يصعد مكانى نجل احد الكبار . سحبوا منى المكتب الأنيق والساعى والسائق . ألغوا بدل الضيافة وبدل التمثيل وكل بدل قابل للإلغاء وصاروا ينادوننى بالأفندى أو الأستاذ وربما باسمى مجرداً من كل لقب .. وضاع نصف مرتبى ، قلت لها :

- إنهم هزمونى ..
- احسن ..
- أتفرحين لنكستى ؟
- من يوم ترقيتك وأنت منفوخ .

- وخفضوا مرتبى .

- وما شأنى ؟

- وهل أسرق لتدفعى للشغالة ؟

- اسرق .

لا توجد امرأة ولا قضية تساوى معاناة ليلة واحدة فى سجون العالم الثالث .. وهذه ثالث شغالة أمية تصادفنى .

قلت لها :

- دعك من المكنسة وتعالى أعلمك .

- سيدتى تزعل .

- تعالى .

- تضربنى .

- لن تقدر .

جاءت ترتجف . أجلستها أمامى . لأول مرة أشاهد عجوزاً فى الرابعة عشر. رأيت أيضاً علامات الضرب والكى . سألتها عن الفاعل . خرساء . سألتها بإلحاح . خافت . هربت منى .، لاذت بالمكنسة ..

- ستموتين من الشغل يا مسكينة .

تمتمت بشفتيها مثل سيدتها .

- هل قالت سيدى مجنون ؟

علا صوت السجانة من الداخل :

- مالك بالبنت .

- ليس لى .

- ماذا قلت لها ؟

- ساعرف حتماً اسم الفاعل .

- الفاعل ؟

- كل هذا الكى .

- لا شأن لك .

- كل هذه القسوة ؟ .

- ماذا تريد من البنت ؟ حتى الشغالة ؟

الغوث . زوجتى منحت مخها إجازة ، تشاجرنا ثم تصالحنا . قلت لها إننى اليوم فى إجازة ولا رغبة لى فى معارك هامشية تستنزفنى ، وأفضل شيء الآن .. الابتعاد . ماذا لو علقت السرير فى السقف . بحثت عن بعض الحبال ..

- حبال .. لماذا ؟ .

قلت لها عن الفكرة ؟

- يا رب يعلقوك مثل الـ .. ف

- معًا ..

ارتفعت حرارة الكلمات فلعنت كل أنواع الإجازات ، العارضة والاعتيادية والمرضية ، ولعنت كل الرجال الذين لا يقدرون ما بين أيديهم من كنوز وأعادت اسطوانتها القديمة عن وكلاء النيابة والأطباء والمهندسين وكبار السياسيين من أعضاء مجلس الشعب والشورى والمجالس القومية المتخصصة الذين تقدموا لها ، أو حلموا بها ، وتمنوها ، أضفت مقاطعًا :

- وعبد الحليم حافظ ..

- دمك خفيف .

تركتها وحملت جرائدى ، ومجلاتى وكتابًا مختارًا ، وجلست أتصفح، بدأت كعادتى بركن الوفيات وأطول إعلان : (توفى إلى رحمة الله ، رجل الأعمال الكبير ، شقيق كل من وزير الـ .. ، واللواء الوزير محافظ الـ.. ،

ومدير أمن الـ . . ، ورئيس مجلس إدارة الـ . . ، وعم كل من سفير مصر فى الـ . . ، وعضو مجلس الشعب عن دائرة الـ . . ، والمستشار رئيس محكمة الـ . . ، ووالد كل من نجم مصر الكبير ونجم نادى الـ . . ، والسيد الدكتور عميد كلية الـ . . ، والدكتورة عميدة معهد الـ . . ، يا إلهى . .) هذا ميت واحد يحتل بأسرته نصف البلد ، ألقيت بالجريدة الأولى وفتحت الثانية على صفحة الحوادث . انفجار مواسير واختلاسات وحرائق موسم الجرد وزوجات يمزقن أزواجهن بالسواطير . كل شيء أسود قاتم ولا بارقة أمل ، ألقيت بالجرائد ومزقت المجلات وانسحبت للشرفة هربًا من رائحة البيض المقلى :

– أنا لا أحب البيض بهذه الطريقة

– أنت حر . . عملتها وخلاص

– لا أعملى غيرها . .

– مش عاملة . .

– هتعملى .

– مش عاملة . .

– هتعملى ، والبتاع فوق رقبتك . .

– اضرب رأسك بالحائط . .

أغاظتنى . قررت إغاظتها :

– ما رأيك . . نخرج وندخل سينما .

صدقت . فرحت . . تهلل وجهها ، تساءلت عن اسم الفيلم ، فتحت لها المجلة على الإعلان :

– "كيف تقتل زوجتك" . .

– أنا التى سأقتلك يومًا .

ثم غضبت وانسحبت . أسعدني ذهابها بعيداً ، اختليت بنفسي . حزنت لحالنا ، فيستحيل أن يكون سبب هذا الشعور الكاتم لأننا لم ننجب كما تقول .. ثم ما ذنبي وهي عاقر .. فكل الأطباء أجمعوا على استحالة علاجها .. وهذه مسألة لا تؤرقني فما الذى سأقدمه لمن سآتي بهم سوى هذا الذى أعاني منه .. وسأظل . وقد جاء ليل شتائي آخر وجثم فوق أنفاسي كعادته .. ستمر ثوانيه ودقائقه وساعاته حتى يأتي الفجر ويعقبه نهار طويل ثم ليل أكثر طولاً ومللاً ، وأنا أعرف بالدقة ما سيقع لي خلال السنوات القادمة من خلال رصدى للواقع . كل يوم من زنزانة البيت إلى سجن المصلحة ، ذهاب . إياب . جلوس . عمل . نوم . صحيان . فراش . علاوات . قرارات . ترقيات . تقارير سرية . أمراض .. سأهلك وجودى بين الأوراق الحكومية المتربة الجافة ومع البلهاء والحاقدين والدساسين . وأعرف أنني سأفقد حيويتي وفحولتي بعد ثلاثين عامًا لو استمر لقائي اليومي معها على نفس الوتيرة ، وأعرف أنني لن أصير وزيرًا لأن الحزب الذى أنتمي إليه لن يصل للحكم أبداً .. إلا إذا لعب القط والفأر في سلام . وأنني لن أصبح مليونيراً فليس لي أقارب في البنوك الكبرى ، ولا أفهم في أصناف المخدرات، ولا أجيد أساليب الاحتيال ، وكل أقاربي .. بل أهل قريتي كلهم عاشوا وماتوا فقراء فلن أرث أحداً ، ولن أصير مشهوراً .. لأني لم ألعب كرة القدم ووجهي لا يصلح للسينما وليس لي أصدقاء في جهاز التلفاز . ولا أحلم أن أكون زوجًا لأجمل الجميلات ولو أردت الإنجاب .. سأتزوج حتمًا ببلهاء أخرى من نفس العجينة . ولم يحدث من قبل أن فاز مجهول بمنصب مدير المصلحة .. وما دمت لن أكون وزيراً ولا ثريًا ولا مشهوراً ولا زوجًا لملكة الجمال ولا مديراً للمصلحة أو حتى مديراً عامًا .. فما الذى أنتظره من غدى سوى أن يأتي عاديًا بلا إبهار ، وبالتالي . مازال السؤال

قائمًا : ما معنى هذا كله ؟ بدات أدرك الآن .. حقيقة ذلك الشعور الخفى بأنى أنزف من داخلى نزفًا بطيئًا متواصلاً .. نقطة .. نقطة . وافقد كل يوم، كمية من تلك العجينة الغالية التى تحفظ توازن عقولنا . ولابد أن الناس جميعًا يفقدون هذه المادة دون أن يشعروا واكثرهم إدراكًا للحالة هم الذين يعانون ، ويحملون العالم فوق كفوفهم ويغلى داخلهم ويمور . وقد فشلت تمامًا فى الوصول لذلك الثقب الخطير الذى يتدفق منه كل هذا النزيف .

قالت وهى تزغدنى بكوعها المسمارى :

– أين انت ؟

– بجوارك ؟

– لا اقصد جسمك .

– هذا يكفى .

– أتفكر فيها ؟

– من ؟

– تظننى عبيطة .

كدت أحتد . اقتربت منى ، داعبتنى بحنان ليلى وقامت تستعد للقاء الليل المتكرر وهى تغنى . صارت جميلة بعد عمل الترتيبات والإصلاحات، الأدهنة والأصباغ والملابس الشفافة ، تغنى وتدنو ، .. تكلمنى عن أيام الخطوبة وتدنو . تبرز مفاتنها وتدنو . ثم تعانقنا وتهامسنا واستمتعنا وانحصرت الدنيا فى هذه اللحظة السعيدة .. ليس قبلها ولا بعدها شىء ، ولابد أن الكرة الأرضية كانت تدور كعادتها حين اصطدم بها كوكب مجهول فخرجت كرتنا عن مدارها فاسرعت ، وأسرعت لتندفع بنا فى الفضاء الفسيح .. وقد انعكس هذا على طبيعة الأشياء وعلاقاتها ببعضها

فكرت فى البداية .. إننى ربما أعانى خللاً من جراء ذلك النزيف فراجعت قدرتى على التذكر والإحساس والتمييز ، فاليوم هو الأربعاء يوم كذا سنة كذا . وهذه زوجتى واسمى أعرفه مسلسلاً حتى الجد المائة كما تعلمت من جدتى ، وإذا وخزت يدى بإبرة أحس وأتألم . والمؤكد أنه حدث شيء . لم أستطع احتمال الأمر بمفردى . تخلصت منها وهتفت مسروراً :

– الحقينى .

– سلامتك .

– شيء يلعب داخل بطنى .

– بطنك ؟

ردت وهى شاردة فلابد أنها تفكر فى أمورها العادية وكيفية معاملتها للشغالة بحيث تجعلها تسير فوق العجينة دون أن .. جذبت يدها ناحية المنطقة المعنية ..

– بماذا تشعر ؟ مغص عادى ؟ وجع شديد ؟ مجرد وخز ؟ أى مغص عادى هذا يا بلهاء ؟ أعرف المغص بجميع أنواعه .. الكلوى والمعوى والمرارى والذى يعقب شتائم المدير ، وبعد صرف المرتبات ، وحين رفع الأسعار ، والذى يعقب الهزائم القومية ، والذى يعقب ويعقب .. إنما الذى يعترينى الآن له علاقة بالجنين ومراحل تطوره داخل الرحم .. هناك بالفعل شيء يتلاعب ويتراقص بالداخل ..

– اطلبى الدكتور .. حالاً .

– لو أعرف مما تعانى ؟

– اطلبى القابلة .

– قابلة .

قامت تبسمل وهى تشم بقايا كوب الشاى وكوب الماء وأعقاب

السجائر ، وكأنها تفتش عن مخدرات أو حبوب هلوسة أو زجاجة خمر مدسوسة ، مع علمها بأنى لا أتعاطى شيئًا من هذا كله ، ولما فشلت فى العثور على دليل .. أكثرت من البسملة والحوقلة والاستعاذة وهى تسب بنت الأبالسة الشيطانة بنت العفاريت التى عملتها على حين غفلة منها وأخذت تبحث عن الحجاب أو (العمل) تحت الوسائد .. ولما فشلت ، رفعت السجاجيد .. ولما .. قلبت المراتب .. ولما .. رفعت السجاجيد ، اتجهت لأوانى المطبخ وعتبة الباب وفوق الدولاب ، ولم يبق أمامها إلا تكسير بلاط الشقة .. وحين لم تعثر على الشيء الذى تظنه أصابنى بالخلل، جلست بجوارى تمسح جبهتى وتقرأ الآية القرآنية التى تطرد الأرواح الشريرة .. تقرأ فأنظر إليها ساخراً ، تقرأ ولا يتغير موقفى . وكلما حاولت مداعبتها ، ابتعدت ، أدنو فتبعد ، أضحك فتبكى ، أتكلم فتصمت وتنظر نحوى بحزن وتسرع فى القراءة وتكثر من البسملة . فما الذى قلته أو فعلته حتى تصاب بكل هذا الفزع ، إنها أبداً لن ترتفع لمستوى معاناتى ، أبداً لن تقتنع بما وقع إلا من خلال دليل مادى ملموس . كنت مهمومًا أفكر . أبحث عن الدليل.. فإذا كانت زوجتى تكذبنى .. فكيف أقنع الآخرين .. ثم وجدت دليلى ، نظرت للساعات الثلاث .. ساعة الحائط ، المنبه ، ساعة يدى .. وكلها تشير لتوقيت واحد ، الثانية صباحًا ، بينما الضوء المتسرب من شيش النافذة يدل على توقيت آخر غير الذى تعودناه وعرفناه .. ولزيادة التأكيد .. فتحت النافذة لتغمر أشعة الشمس شقتنا ، وتأكيداً للتأكيد ، فتحت المذياع وسمعت بإصغاء مركز : هنا القاهرة أعلنت ساعة جامعة القاهرة الثانية من صباح الخميس .. أيها السيدات والسادة .. إليكم هذا النبأ.. جاءنا الآن من الأرصاد الجوية أن درجة الحرارة سترتفع وتنخفض عدة مرات فى اليوم الواحد ما بين درجتى

الغليان والتجمد ، وذلك لأن الشمس . الكرة الأرضية .. اتصلنا .. أجمع العالم .. وسنواليكم ..

– سامعة !

لا تسمع .. ولا تريد ..

– انظرى .

جذبتها ناحية النافذة فالشمس لم تأت من الشرق ولامن الغرب وضوءها يشع من حيث لا ندرى ، وهى تختفى والأرض تندفع .. تندفع ..

– سنقع .. سنقع .. امسكى بشىء .

تركتنى وعادت لتتكور باكية فلم أهتم بفزعها ولا بدموعها واستلقيت على ظهرى ، ثانيًا ساقى ، مباعداً ما بين فخذى ، منتظراً تلك اللحظة الحاسمة بقلق وترقب .

الفـزع

صامتًا دخل غرفته .. ألقى جسده المرهق فوق سريره بكامل ملابسه ، رقد مشبكًا يديه على صدره ، شاخصًا للسقف ، مفكرًا بعمق . جاءت الصغيرة الشقية تجرى ، هاتفة باسمه ، مرحبة به وجدته متجهماً ، داعبته ، تسلقته ، حاولت إضحاكه ، قعدت على بطنه ، هزته ، فتحت يديه المعقودتين ، فتشت جيوبه ، نظرت إليه بخيبة أمل ،كاد يدفعها بعيداً ، احتضنها ، عصرها بقوة ، حبس دمعة كادت تفر ، نسى حَلواها ، وصار ينساها كثيراً ، نقدها قطعة معدنية ،رمتها وانسحبت باكية ، حلفت ألا تكلمه أبداً :

– انت وحش يا بابا .

زادت المطارق ، أنّ متوجعًا من شدة الصداع ، اقتربت منه الشريكة متوجسة تساءلت بقلق :

– مالك ؟

– مافيش .

– عملت إيه ؟

– ولا حاجة .

– قول يا رب .

– قلت .

– هتتعدل .

– إزاى ؟!

– هما عملوا معاك إيه ؟

– أولاد الكلب .

هذا ما زعق به وهو ينصرف ، سبهم ولعن جدودهم . ثار عليهم . كادوا يستدعون له الشرطة . شغلوه عدة أيام ، هات أوراق ، شهادات خبرة، ست صور ، كان واثقًا من الفوز بالوظيفة ، كل الشروط تنطبق عليه ، أجاب على أسئلة المسابقة بدقة ، نجح فى المقابلة الشخصية ، كانوا خمسين متقدمًا لوظيفة واحدة ، جاء ترتيبه الثانى بين عشرة ناجحين ، فمن يكون الأول سعيد الحظ ؟ دائمًا يحدث هذا ، طلب بمواجهة مكشوفة مع الأول ، طردوه ، منذ عام وهو يخوض هذه المهازل ، عشرات الامتحانات والمقابلات ، أبدًا لم يفز بوظيفة فى مدينة تعانى من البطالة ويعمل خريجو جامعاتها سفرجية فنادق ، وحراس أمن ، وعمال نظافة ، هل يسافر تاركًا أولاده بلا رعاية ؟ إلى أين يفر ودول النفط صارت مناطق طرد للعمالة ؟ نفخ . سب . لا أحد .. شوّح بيده مهددًا أشباحًا ، قالت وهى تبتسم :

– استغفر وهى تفرج .

– مش باين !

بسملت ، اقتربت منه ، بطيبتها وجمالها الريفى الفطرى وتدينها العميق الجذور ، تعرف كيف تمتص ثورته ، رفقة سنوات طويلة ، مرت بيدها الطرية البيضاء على جبينه وخديه ، وجدت حرارته عادية ونبضه منتظمًا ، أدخلت يدها من فتحة القميص ، مسحت الشعيرات الغزيرات على صدره، جذبت شاربه برفق تسللت للأماكن المؤججة للعواطف والمساعدة على التواصل .. لا شيء .. لا رجل .. صدمها جسده الرخو الميت ، أفزعها انفصاله عنها . كانت تستعيده بلمسة ، بنظرة من عينيها الواسعتين، قالت بعتاب مصطنع :

– كنت فين يا أخويا ؟

لزم الصمت . ليس بوسعها ولا بوسع نساء العالم أن تزيل عنه هذا الهم المقيم ، خجلت من سوء التوقيت ، قالت له مواسية ،ومصّبرة :

- أن الرب موجود ، ولا أحد يموت جوعًا .

ضايقته عبارتها المبسطة ، خرج عن صمته صرخ زاعقًا :

- بيموتوا .. أقرى جرايد وأنت تعرفى .. سمعت عن مجاعة أفريقيا؟ .

زدت معلقة :

- (أصل دول كفار) .

ابتسم ساخراً . لأن الجوع لا يميز بين كافر ومؤمن . ران بينهما صمت ثقيل ، إنه يستغرب من قدرتها العجيبة على تحمل الصدمات .. باعوا كل شئ ولا تذمرت ، لم يبق لديهم سوى الفراش والأولاد والشقة .. المهددة بالضياع ..

- كُل لقمة .

- مش واكل .

- تشرب شاى ؟

- مش طافح .

- أجيب لك أسبرينة ؟

- لا .

- عريس البنت جاى بكره .

- يروح فى داهية .

- دفعت وصل النور ؟

- لسه .

- صاحب البيت جالك ؟

- رحت له .

– وعاوز إيه ؟

– الشقة . .

– يا دهوتى.

أشاح بوجهه عنها . قاطعها . انصرفت غاضبة . لا ذنب لها فيما يعانى. تطلعاته هى سبب المأساة ، طول عمرها ترضى بالقليل ، تزوجا صغيرين . عاشا فترة فى الريف ، حصل على وظيفة حكومية ، وانتقلا للمدينة . سكنا فى غرفة وصالة ، أنجبا ثلاثة . أكلا المحشى والفول . حلم بالسفر إلى بلاد المال ، حلم بالطيبات . أراد أن يطفو . كان يختنق . هبط عليه رجل أعمال مقاول كالقدر ، كانت وظيفته ذات شأن فى وزارة تشرف على عالم البناء والتشييد ، لجأ إليه المقاول باحثًا عن أوراق تاهت شهوراً :

– فى عرضك يابيه لأن شغلى كله وقف . . دا خراب بيوت . . واللى تطلبه .

كان ما يزال فلاحًا شهمًا وليس ممن ينجزون سعيًا للمغانم . استخلص له الأوراق من بين الأنابيب والمخالب وتحت أمرك ياحاج . طار المقاول فرحًا ، وعرض عليه اى خدمات مهما كانت قال له مستنجداً :

– اسافر يا حاج ، نفسى أسافر لأى مكان .

– بسيطة . وطلب مهلة . عاد إليه بعد يومين بعرض غريب ومدهش .

– أنت ابن حلال ولقطة وكويس . . آخذك عندى . . أضرب مرتبك فى خمسة ، والفين جنيه سلفة ، لا ترد ، وعقد على بياض .

ذهول . ارتباك ، دهشة مقرونة بالسعادة ، فلا هو لاعب كرة ، ولا هذا المقاول له صلة بالرياضة ، فهل يحلم ؟ فكر . سأل . تردد . قاوم . كل الذين عرفوا . . شجعوه . فهذا رجل مالى مرموق تنشر الصحف صوره ويتغنى التلفاز بإعلاناته . أخذ شهراً إجازة وجرب . رأى المال والنجاح .

حلم بالصعود . طالب بإجازة أخرى لمدة عام . . اعترض مدير الإدارة متعللاً بحاجة العمل إليه ، وليس أمامه خيار غير التراجع أو الاستقالة . . ولأن عشرات ومئات غيره انتقلوا قبله لشركات الانفتاح ، فعلها وغامر ، استقال بعد عدة شهور اكتشف مهمته الصعبة ، جسر العبور بين أوراق المقاول ومصالح الحكومة بما له من خبرة ومعارف ، وما كان بوسعه التراجع ، تكيف وعاش ، اندفع للسطح يتنفس ، شقة واسعة إيجارها الشهرى مائة جنيه ، ثلاجة مليئة بالطيبات ، وأوشك على شراء السيارة حين وقعت المصيبة بعد سبع سنوات مرت كالحلم . ذهب ذات صباح منكود فوجد الشركة فى قبضة الشرطة ، بعد فرار المقاول بفلوس البنوك والمواطنين لخارج البلاد ، واتضح للجنة الجرد أن أصول الشركة لا تتجاوز ثمن المكاتب والمقاعد ، وكل المعدات الثقيلة من أوناش ولوادر وحفارات . . مستأجرة ، وكاد يذهب للسجن شريكًا ومتسترًا لولا حكمة القاضى . .

هو والبطالة ، باع ليسدد أقساطًا والتزامات ، فماذا يبيع الآن وكيف ينقذ الشقة ؟ صاحب العقار أنذره بالطرد أو التنازل مقابل ثلاثة آلاف جنيه . وكيف يعثر على شقة صغيرة بهذا المبلغ الهزيل ؟ جاب مناطق كثيرة فلم يجد سوى غرف وشقق مخنوقة لا ترى الشمس ولا يدخلها الهواء .

وهو وحيد ، لا أخ غنى يغيثه ولا أخت مستورة تستضيف أسرته . وأين الولد ليشكو له همه ؟ تذكر أنه خرج مع أصدقائه كعادته اليومية . فأين يذهبون؟ وماذا ينفقون ؟ إنه فى حاجة للعمل فوراً . ولكن كيف ؟ حتى عمال البناء لديهم بطالة ؟ ذهب مرة لانتقاء ثلاثة ، فحاصره جيش وكادوا يمزقون قميصه من الشد والجذب . . تمر بذهنه كلمات المأزومين ، وحكم الفلاسفة وابيات الشعراء ، ولما استحكمت حلقاتها فرجت ، فهل

تفرج خلال الساعات القادمة ؟ والولد مازال ساهراً خارج البيت وزوجته انسحبت لغرفة البنات ، وهو يعرف رأيها فى الأزمة :

- هو حد قالك سيب الحكومة وأجرى ورا بتوع التلات ورقات .

ويسمع نحيب البنت الكبيرة فهو على وشك رد ثالث عريس يتقدم للجميلة خلال شهور ، فبأى شئ يجهزها لهم ؟ والولد لابد أنه يتصعلك الآن مع أنداده أمام محلات ويمبى وكنتاكى يتلمظون ويسيل لعابهم ، وربما يتسمرون بجوار محلات بنطلونات الجينز وأحذية كوتشى ، ويخططون لوسيلة إجرامية لجلب المال، وحين قرأ منذ فترة ، عن الأب الذى باع ابنه ، سبه ، أدانه ، نعته بغلظة القلب. فماذا يكون موقفه لو هبط عليه عريس من بلاد مجهولة وعرض عليه كيساً من الذهب ، والساعة تجاوزت حدود المسموح ، والولد غائب ، فركبه هم عظيم ، وصداع مدمر حين تذكر عصابات أولاد المدارس. واستمر يفكر طول الليل ، فرجت وكنت أظنها لا تفرج ، هذا الشطر استفزه ، الأمر ليس بهذه البساطة ، شاعر غيبى حالم ، ابن كلب ، فهو يعرف رجالاً خاصمهم الفرج طوال حياتهم ، وحاصره وجه الرجل الذى باع ابنه ، شامتًا ، متحديًا .. هذا أو الموت جوعًا ، أهى بشائر عام الشدة التى ذكرها الجبرتى فى تاريخه .. فيطاردون القطط ، والكلاب ، والحمير ، والصقور ، وأبو قردان ، وكل ما يمشى أو يطير ، وهل تضطر الحكومة نفسها إلى بيع التحف والتماثيل ومياه النيل وقناة السويس والصحراوات؟! وهو مازال يأمل خيراً فى الشطر الثانى ، فرجت وكنت أظنها لا تفرج . لكن حتى هذه الساعة ، لم تتحقق نبوءة الشاعر ، لأن الإذاعة لم تعلن بعد ، الخبر المفرح المتوقع ، بأن المخزون الهائل للمياه الجوفية فى واحة سيوة قد تحول لبترول لن ينضب معينه ، ولا البعثة الجيولوجية التى تنقب فى الصحراء الشرقية قد عثرت على أكبر منجم للذهب فى

الكرة الأرضية . ولا انقلابًا كونيًا مناخيًا قد حدث فهطلت الأمطار بغزارة وروت الصحارى، فارتفعت سنابل القمح وفاضت عن الحاجة ، ولا الدول الغنية تدخلت لإعانة المتعثرين وتنازلت عن ديونها ، ولا اليابان أفشت سر دوائها العجيب الساحر الذى يشربه الناس فيبدعون ويخترعون ، ولا المقاول الهارب أخذته صحوة ضمير فعاد واستأنف اعماله وانقذ عماله وموظفيه المشردين ، ولا الشركة التى تقدم لها اكتشفت خطأها وابرقت له باحقيته فى العمل ، ولأن شيئًا من هذا كله لم يحدث ،لعن جدود الشاعر وهاجمه الصداع كأحدّ ما يكون وتراقصت حوله صور اطفال افريقيا الجياع بعظام صدورهم الناتئة ، فعصره قلق داهم على البنت الصغيرة بعودها الرهيف ، فإن لم يسرق أو يستجدى .. كيف يوفر قوت الأولاد وإيجار الشقة ؟ وتوقف تفكيره عند هذه النقطة الحرجة ، نهاية مأساوية ومصير أسود . لا . ليس هو الذى يرتكب العيب وينحرف ، طول عمره عاش مستوراً محترمًا . غداً يتنازل عن الشقة ويستأجر أخرى صغيرة وبالفائض يعيش شهوراً ، غداً يقبل أى وظيفة مهما تدنت . غداً يذهب لصديقه فى المستشفى الاستثمارى ليلحق زوجته أو ابنته حاملة الدبلوم فى اى عمل . غداً يقنع الولد حامل الثانوية لكى يتقدم بأوراقه للمعهد الفنى الصحى ، حتى يجد عملاً بعد سنتين . ولما دقت الساعة ، تعلن بداية اليوم الجديد ، راجع أفكاره ووجد صعوبة كبيرة فى تنفيذ معظم الحلول المطروحة، فالولد مصمم على إعادة امتحان الثانوية أملاً فى المجموع الكبير الذى يؤهله لدخول كليات القمة . والبنت وأمها لن تقبلا مسح بلاط المستشفى وترتيب أسرّتها ، وهو نفسه لن يستطيع العمل مناديًا للسيارات ، أو كاتبًا فى فرن ، وصحته ليست فى مستوى الأعمال البدنية الشاقة ، وكل الشقق أو الغرف المتاحة تشبه الجحور ، ومن الصعب نقل أسرته من السطح إلى

القاع بسهولة . تأزم وأحس بالحصار والوحدة ، وبرزت له وجوه كثيرة، صاحب البيت ، المقاول الهارب ، الرجل الذى باع ابنه ، العمال الذين يقفون فوق كوبرى نصر الدين ، بلا عمل ، الشحاذون عرسان البنت ، الولد الغائب الساهر ، فزع . ارتعد ، دق قلبه وصار الصداع غولاً ينهش رأسه ، ويدمر خلاياه .

بدأ لسانه يثقل ، ووجه يتنمل ، أطرافه تتراخى . . شعر بعطش ، برغبة ملحة فى نسمة هواء ، برفيق . كان وحيداً معزولاً ، حاول التحرك مستنجداً، وصل بصعوبة لحافة السرير ، تأوه ، شهق ، وقع على الأرض ولم يقم . . .

كوما كوما .. جاكم الله

(١)

ألتصق بأمي، ينتفض جسمي . تحتضنني . تتلو آية الكرسي . تسقيني ماء . تمسح وجهي بحنان ، تتحسس الحجاب حول رقبتي . الرعب يشلني أشير ناحية الركن المظلم . أقول لها مرتجفًا :

– هناك يا أمي .

تبسمل وتطلب مني البسملة . أراقب الفضاء بعينين راصدتين . عواء الذئاب الجائعة الزاحفة من الجبال المتاخمة يكشف رعبي . الكلاب النابحة المطاردة حين تتعالى أصواتها بعصبية وتتشابك أدرك أن ذئبًا شرسًا أو ضبعًا غبيًا اخترق الحزام الواقي ، وتسلل بين بيوت القرية بحثًا عن فريسة ضالة ، حمار شارد أو إنسان وحيد دفعته ظروف قاهرة للخروج ليلاً . أو زريبة مفتوحة عن طريق السهو . تقول أمي مستجيرة وهي تتوجس مما بالخارج بعيداً يا بلاء . . صاحب البيت محمد رسول الله . . نحن عبادك يا رب ، احمني وأولادي يا رب العالمين . نتضام إليها – أنا وأختي – فوق (العنجريب) الموضوع وسط الحوش ونتلاصق ثلاثتنا . أما جدتي الشجاعة ، فهي تنام بمفردها . . قريبًا منا، تحرسنا وتدافع عنا ، إن لمحت عقربًا . . سحقته بالمركوب ، إن رأت ثعلبًا ماكرًا قفز للحوش . . طاردته بالهراوة ، إن سمعت صوتًا غريبًا أو شيئًا ساكنًا حركته الريح . . قامت تفتش البيت كله وبيدها فانوس وبالأخرى قرآن ، وهي تتمتم بالأدعية التي تطرد الشيطان وتحرق الجان . وحين تسمع صرخة امرأة جارة لدغتها عقرب أو جاءها الطلق ، تهرع إليها غير هيابة ومعها أسلحتها ، الفانوس والهراوة والقرآن وأمامها وخلفها . . كلابنا الحارسة .

لكن منذ سمعت بحكاية عباس دول – أقوى رجال قريتنا – مع

عفاريت معبد كلابشة حيث فقدنا بعدها حصتنا من التموين ، السكر والشاى والزيت والكيروسين ، بدأت أشك فى قدرة بسملات جدتى على طرد الشياطين . ومنذ خطف الضبع الغبى جروى الصغير المحبوب .. من أمام بيتنا وافترسه ، بدأت أنظر بخيبة أمل لكلابنا وكلاب الدنيا .

لكن ما هى حكاية عباس دول ؟ . الصغار يجهلون ، والكبار يأبون الإفصاح . والمسألة كلها مغلفة بالغموض ، والذى سمعته خلسة . قليل ولكنه كاف لإخافتى ، فصارت الأشباح اللعينة تحاصرنى ، تنبثق من دخان الكانون ، من قلب النهر . أرى وجوهًا مشعرة وقرونًا وحوافر وعيونًا حمراء كاللهب ، وأسأل أمى بدهشة :

- هل الجان يشربون الشاى مثلنا ؟ .

لماذا خلق الله كل هذه الكائنات المؤذية ؟ ولماذا خلق أشرار الناس؟ ولماذا يحرقنا بالشمس ؟

فكل هذه الأمور تكبلنى وتحد من حركتى ، لا تذهب للجبل لأن الذئاب .. ، لا تدخل الأماكن المظلمة لأن العفاريت .. ، لا تمش بالنهار لأن الشمس ... ، لا تلعب مع الشبان الكبار لأنهم ... ،

تقول أمى :

- إن الله خلق الجن والإنس ليعبدوه .

ولا تزيد . تصمت فأسال من جديد :

- طيب يا أمى والفيضان .. لماذا يوجهه الله نحونا ليدمر محصولاتنا ؟ ولماذا هذه (الطريشات) السامة التى تدفن نفسها فى الرمال وتطير للفريسة تلدغها .. فتموت .

وأقول لها :

- نحن ندعوه كثيرًا يا أمى ولكنه لا يستجيب . فهل يجهل

رطانتنا؟.

- تضربني أمي وتسكتني ، تطلب مني الاستغفار مائة مرة . يخرس صوتي وأبيت أحاور نفسي حتى يغلبني النعاس وأقوم فزعًا باكيًا على أصابعها القارصة لأني فعلتها مثل كل ليلة ، وهل كنت أغامر وأفصح عن رغبتي فتتدخل جدتي وتأمرني بالذهاب إلى الزريبة بمفردي لأني رجل والرجال لا ينبغي أن يخافوا . فأسأل جدتي :

- وهل تفرق العقارب والذئاب والتماسيح والعفاريت بين الرجل والمرأة؟.

لا تقنعني وتسب أنصاف الرجال وتطلب من أمي أن تدعني لها لكي تحسن تربيتي .

- طيب يا جدتي .. وعباس دول .. أليس رجلاً ؟ لماذا هزمته العفاريت إذن ؟ .

وأنتهز الفرصة وأشاكسها :

- إذا كنت لا تخافين من سيرة العفاريت.. فما هي حكاية المعبد ؟.

تصمت . تستعيذ ولا تتكلم ، فلم يبق أمامي سوى الست صفية لأنها الوحيدة التي كسرت الحاجز بين الجن والإنس وبين الصغار والكبار . فأين أعثر عليها ؟ إنها دائمة التنقل بين النجوع لزيارة البيوت العامرة بخيرات المغتربين العائدين ، والنساء يرحبن بها لأنها الخاطبة والماشطة والخاتنة والواشمة والحكاية وناقلة الأخبار ، ودعوتها - دائمًا - تتطلب الطعام الطيب . فأخذت أتحايل على أمي وأتمارض حتى أقنعتها بذبح الديك الكبير الذى ادخرته ليوم المولد النبوى . فتسللت ودعوت الست صفية دون علم أمي . ولبثت أنتظر مجيئها متوترًا خوفًا من ترددها ، واختيارها لبيت آخر أكثر رخاءً.

(٢)

جاءت الست صفية فرحة . قلت لأمي : إننى الداعي . غضبت لأنى أحضرت من تشاركنا الوليمة المحدودة . أكلت صفية نصيبها وأهديتها نصف نصيبى . تصنعت التمنع ثم قبلت الهدية قائلة :

- أنتم صغار والعمر أمامكم طويل وستأكلون كثيراً .

ابتسمت لأن بعض الكبار القنوعين يقولون العكس :

- كلوا أنتم يا صغار لكي تكبروا فنحن أكلنا فى زمن الرخاء .

ابتسمت أختى . احتجت من تصرفى ودست أمي قطعة من نصيبها فى فمى . تجشأت الست صفية شبعًا . أشعلت البايب . اتكأت باسترخاء تقص للنساء أخبار الشمال والجنوب وأهملت أمرى . أدنو منها . أنبهها . أستجديها . تبدأ صفية بالافتتاحية المعتادة :

- (كوما كوما جاكم الله)*.

اقاطعها . بأننى لا أريد سماع حدوتة .. وإنما أود معرفة تفاصيل معركة عباس دُول مع عفاريت معبد كلابشة . جدتى تعترض وأمى تنضم إليها وأختى تؤازرنى والست صفية - بذكائها - تقنعهما بإطلاق البخور وتلاوة الأدعية قبل الخوض فى سيرة الذين لا يتسمون . ثم طارت بنا لعوالم سحرية من القماقم والغيلان والجن الكافر والجن المسلم . قالت الست صفية بعد التمهيد :

- ولما وصل عباس دُول بالمركب الذى يحمل تموين القرية إلى بلدة كلابشه ، أتى عليه الليل فرسى تحت معبد كلابشه الذى بناه ملك الجان ، وتسكنه العفاريت وهو يجهل ذلك .

* جملة تبدأ بها الحواديت النوبية .. وكما معناها باللهجة النوبية الكنزية حكاية

- ملك الجان .. ؟

رددت الاسم خائفًا ومندهشًا ، لأن المدرس الشمالى علمنا أن معابد النوبة قد شيدها الفراعنة . نقلت هذه المعلومة للست صفية .. فثارت ، سبت ، لعنت (الخوجة) ذا الوجه الأحمر الذى يفسد العقول ولا يجيد شيئًا سوى ضرب الصغار وتسفيه عاداتنا ، إذ كيف للبشر أن يحملوا هذه الكتل الصخرية الهائلة ؟ وكيف لأى بناء أو نحات أن يفعل هذا ؟ وهل شاهد مُدرسك الكذاب معابد أبى سمبل ؟ وهل لفراعينه القدرة على نحت تلك التماثيل ؟ يا ابنى . لا يفعل مثل هذا إلا الجن والأنبياء .. غضبت الست صفية منى وعاقبتنى بالصمت ، فأحلف لها بتربة النبى محمد بأننى لن أصدق بعد الآن حرفًا مما سيقوله المدرس . تقتنع وتعاود السرد الذى انقطع :

- ونام عباس قليلاً ليستريح وقام على صوت يعرفه ينادى عليه من البر يطلب النجدة .. ويزعم صاحبه أنه ضل الطريق للقرية والذئاب نالت دابته وستلحق به أيضًا . فمد له عباس السقالة وأعطاه يده ليعاونه على الصعود ، فأمسك بقدم حمار وهجم عليه قبيل من الجن .. قلبوا له المركب بالتموين في النهر وفروا حين تذكر عباس فبسمل وأشعل ثقابًا .

أرتجف وألوذ بصدر أمى . تطلق صفية مزيداً من البخور تأمرها جدتى بالكف ، ينشغلن بأحاديثهن المعتادة عن الحسد والعين التى تفلق الحجر وعن .. وعن . فلم ألح عليها بسرد باقى القصة .. لأنى أعرفها ، فقد مكث عباس مريضًا من (الخضة) أيامًا طويلة ، وتعاون أهل قريتنا فى إصلاح مركب عثمان جفور المؤجر لعباس ودفعوا ثمن التموين بالكامل للتاجر . وقاومنا جميعًا حنيننا لأكواب الشاى العزيزة والزيت قلى السمك وجبتنا الرئيسية ، واستمرت الحياة فى قريتنا كالعادة لا تتغير .. حتى نزلت

بجوارنا أسرة جاءت من القاهرة فصادقت أطفالها واندهشوا مما نحن فيه ، لأننا ننام مع المغيب خوفًا من الوحوش والعقارب ونكمن طول النهار داخل البيوت هربًا من حرارة الشمس ولا نسبح فى النهر خشية التماسيح ، ونكمن ولا نزور المعابد لأنها مسكونة ، ولا ناكل القراميط لأنها أكلت جدنا الكبير ، ونسير حفاة ولا نعرف الكهرباء والراديو والترام والقطار وأننا لا نستمع بحياتنا أبداً . وصاروا يزينون لى مصر أم الدنيا وطيباتها . . وأنهم هناك يسيرون ليلاً ونهاراً ولم يشاهدوا كل الأشياء المرعبة التى هنا .

قلت لأمى :

- أسافر (لمصر . .) .

قالت :

- أبداً . . لأن من يذهب إلى هناك لا يعود . وأخذت تصف لى انطباعاتها عن المرة الوحيدة التى ذهبت فيها شمالاً ، البق والأكلان والسل والترام الذى يقطع الأرجل والأيدى والغرف الخانقة الضيقة ، واللصوص الذين يقتلون الضحايا ويسرقون الأطفال ويبيعونهم ، والعيب وقلة الأدب . قالت أشياء كثيرة وكادت تثبط همتى لولا وقوع حادث لأحد أندادى . . حيث ابتلعه النهر أمامى . وآخر كان لا يفارقنى . . وكنا نلعب على الرمال . . فطارت نحوه (طريشة) . . لدغته ، فمات رغم كل الدعوات والصلوات .

أشعر بالوحدة والخوف وأصمم على الرحيل فأهرب منها وأعتصم بالميناء فى انتظار الباخرة ، تأتينى أمى مرغمة ومعها طعام السفر وأجرتها وتبرق لأبى . فارحل سعيداً عن بلاد الوحوش والعفاريت .

(٣)

بعد ثلاثين عامًا أعود إلى قريتى . أمى ماتت وهى غاضبة على . وبلاد النوبة القديمة ماتت أيضًا ودفنت فى قاع بحيرة ناصر أثناء غربتى ودون أن أشارك فى مراسيم دفنها . وأبى أكلته مدن الشمال وكادت تأكلنى معه لولا بقايا منى استمرت تقاوم النحر والسحق . وظل الحنين لجذورى شوقًا أكابده حتى حانت الفرصة .

وعلى رصيف قطار محطة كلابشة ، صدمتنى جهامة الوجوه وحيرنى فتور الاستقبال ، فلا بنادق خرطوش تطلق للتحية ، ولا بلح وفيشار ينشران فوق الرؤوس . والنساء عابسات تخرج الزغاريد من حلوقهن كالصراخ . أما الرجال . . فهم ينظرون بعداء للقطار والغرباء . والمحطة نفسها باردة تفتقد لحرارة وأشواق اللقاء مثل ميناء (البوستة) بالبلاد القديمة . ولا شىء مما كان، فلا نهر يشق البلاد طولاً ، ولا نخيل تزين الشاطئين ولا معابد نتنسم منها عبق التاريخ وعمق الجذور . والبيوت مرصوصة فى صفوف مثل المعسكرات وجبل السلسلة المقفر الكئيب يطل على القرى ويزيدها وحشة ومواتًا . ونصف بيوت القرى مغلقة بعد أن هجرها سكانها . فجعت وشعرت بالصدمة والتعاسة وكدت من هلعى أن أحجز فى القطار العائد ، فلا هؤلاء الناس أهلى الذين عرفتهم ، ولا هذه البلاد . وكل ذكرياتى القديمة ليس لها علاقة بما هو كائن ، فهنا مجرد بيوت إيواء يجلس الناس أمام عتباتها مهمومين ، يراقبون العابرين فى ذهول وبلادة . وبمجرد نزولى ضيفًا عند أحد أقاربى ، امتدت نحوى عشرات الأيدى الضامرة بطلبات الإعانة والالتماسات وعبثًا أحاول إقناعهم بأنى أعمل فى وزارة ليس لها علاقة بما يطلبون . والتف حولى عديدون يجارون بالشكوى ويسألون عن

المستقبل . ولفت نظرى بينهم شيخ مشاغب ، رافض لا يستثنى أحداً من سبابه ومهما كان شأنه . فنبهه شيخ من الحاضرين بأن :

– الحيطان ليها ودان .

وقال له آخر زاجراً :

– أتق الله يا عباس دول .. واحفظ لسانك لا يودوك فى توكر .

يا للزمن أهذا الشيخ هو عباس دول الذى سمعنا فى طفولتنا عنه الأساطير ، الجسور ، المطارد من عساكر الهجانة والشرطة النهرية ، المطلوب دائماً للاستجواب فى مركزى الدر وعنيبة . مهرب الدخان والبانجو والمنقب عن الذهب فى مناجم العلاقى القديمة المغلقة والممنوع استعمالها ، أمهر الملاحين فى بلاد النوبة كلها والذى كان يخرج من أصعب المواقف بسهولة . وتتابعت ذكرياتى عنه حتى وصلت لتلك الحادثة الشهيرة والتى يرفض عقلى تصديق تفاصيلها الآن ، فلابد أن أعرف الحكاية .. من بطلها . وكلما حاولت نبش ذاكرته للوصول إلى هدفى ، تهرب ، راوغ وعاد بى للمشاكل الحالية ، البيوت والتعويضات والتهجير والإعانات .. وكلها مسائل تسبب وجع الرأس ولا أملك لها حلاً . هويسب ويسخط ، وأنا أذكره بالمعبد والعفاريت وتموين القرية المفقود ، حتى خلت أنه نسى كل شىء . ورأى بعض الظرفاء أن قرطاساً من دخان البانجو وزجاجة من العرقى أو الروم .. ستحلان عقدة لسانه ، فأرسلت بمن جاء له بالمطلوب . شرب . دخن . ضحك . نكت . لعن . وابتعد عن طرق الموضوع فأدركت أن وراء القصة الساذجة المعروفة لنا قصة أخرى خافية فأضغط عليه وأحاصره وأعود به مرة ثانية للوراء :

– أين أيامك يا عباس ؟ . غزواتك الغرامية فى أسوان وحلفا ، ومواقفك ورجولتك . وحثه الجالسون بإثارة العديد من الذكريات المشتركة المنسية

حتى دفعوه للكلام . قال بعد أن شفط نفساً طويلاً من سيجارة البانجو :

- (أيوه يا إخوان وقت أن كانت الدنيا دنيا والنوبة كانت بلادنا .. كله راح يا رجال .. عليه العوض) .

بهذه الجملة ، اقترب عباس دول من منطقة الذكريات العميقة . ثم نظر نحوى متفرساً وطالباً المزيد من الشراب وحين اعلموه أننى مقيم فى القاهرة ولست من أثرياء السفر .. سألنى مستفسراً :

- أنت ودمنو ؟ .

ولما ذكرت له اسمى واسم أبى .. عرفنى فقال ساباً :

- أنت اللى تزوجت مصرية ؟ تفو على الربابة ! .

ثم سب كل الذين تخلوا عن أصولهم وتكيفوا مع أهل الشمال وشتم الحكومة والحكام ولعن سلسفيل جدود الذين شيدوا البيوت بهذه الطريقة:

- شوف يا ولدى السقف كيف يبخ نار جهنم .. وفين المضيفة الواسعة .. ونمشى من صباح الله لمساه علشان نوصل للغيط .. على أمان الله ولا الدياب تسكن الجبل الخراب دا .. اسمه منو ؟ جبل السلسلة .. ؟ سلسلة تخنق رقابهم ..) .

داومت الحصار .. فاكمل :

- (الحكاية وما فيها ..)

توقف مرة أخرى ، ربما ليشوقنا أو ليلفق كذبة .. وزاغ من بعدها وعاد لمسألة الحكومة ، ورغم صراحته الجارحة فى تصوير معاناة قومى .. إلا أننى بعدت به من منطقة الصداع والوجع لحكاية العفاريت . قال بعصبية وبلهجته الظريفة المتأرجحة ما بين اللهجة السودانية والعامية المصرية والنوبية:

- يا أفندى أنت زول مغفل ولا مخك مارق .. عفاريت بتاع شنو؟.

ولابد أنه تذكر تفاصيل الواقعة فاطلق ضحكة طويلة صافية من تلك الضحكات النبيلة التي ولت مع عصر النوبة ودفنت هناك مع الآثار والبيوت، ثم توقف ساعلاً وماسحًا دموعه بظهر كفيه وطالبًا من الله الستر وحسن الختام وأكمل بعد أن شرب آخر ما في الزجاجة

- (.. الحكاية يا زول أن الولية صفية كانت بلوه . ولا نساوين البندر، الواحد منا كان يسوى الهوايل ويشترى لها كيلو دخان ورطل لحمة وهي تتكفل بالباقى ، تكدب، تشهد زور ، تؤلف حكايات لا لها أصل ولا فصل ، ربنا يسامحها ويسامحنا . أما مسالة عفاريت معبد كلابشه ، أنا لما سافرت بالمركب للشلال علشان أجيب التموين . قابلنى فى الطريق ولد حلبى العبان خسيس ما عنده دين .. بكى زى الحريم وقال لى يا سودانى الحقنى .. الولية عندى بتموت وما عندى وقت أمشى للصايغ فى أسوان .. عندك حد يشترى دول ، وادي ورقة الشراء يا زول ، كردان وخلخالين دهب حاجة سمحه خلاص . اقول الحق ، أنا طمعت وعينى زاغت .. قلت أبيع واشترى واكسب . مشيت بيهم فرحان لصايغ معرفة فى أسوان .. أول ماشافهم .. كركر من الضحك وفطس على روحه

وضحكت بدورى مقاطعًا ، وضحك الحاضرون . فما كان فى تصورى أن شيطانًا مثل عباس يسهل الاحتيال عليه . وامطرناه نكتًا وكلامًا لاذعًا . . لكنه سد علينا الطريق .. وأكمل :

- مشيت للبوليس .. ولا فايدة .. قال إيه القانون لا يحمى المغفلين . قلت لنفسى يا زول رحت بلاش وفضيحة ناسك بجلاجل والموت أفضل من الجرسة .. غايته رجعت للمركب فلسان وخزيان ومدلدل راسى . والمركب ماشى لوحده ما عارف له قلع من دفة .. مرة يروح شمال ومرة يخبط يمين لما دخلت فى الدوامة وفقت والمركب مخبوط فى جزيرة طين

ومقلوب.. وبقت المصيبة .. مصيبتين .

غايته الناس ساعدوني وركنت المركب عند كلابشه وماشي للبلد برجولي .. أفكر .. يازول تسوى شنو ؟ .. تعمل كيف ؟ أغرق نفسي ولا أهج لبر مصر ؟ وهوب .. ونزل على الوحي وافتكرت الولية صفية .. دخلت عليها تعبان ، جوعان ، مبلول .. وفي عرضك يا صفية ، قالت ياعباس طول عمرك زول مشاكل .. لكن دى مصيبة كبيرة .. وأنا سدادة وأحلها لك وما دايرة منك لا دخان ولا لحم ولا قروش .. إنما طلبي غالى . قلت لها موافق والحل شنو ؟ قالت أمش وسط البلد وقول : العفاريت .. العفاريت وأنا أتكفل بالباقي . قلت لها وطلبك الغالى شنو ؟ . قالت تزوجني . الولية اتهبلت .. أتزوج كركوبة ؟!. يا صفية خودى قروش .. كمبيالة .. أجيب لك وأجيب .. حتى لبن العصفور .. قالت أبداً .. تزوجني .. قلت لنفسي الزواج أفضل من الجرسة وكلام الناس . الله يرحمها .. الفاتحة ..

الجميلة والقبيح

استقرت أصابعه القلقة المتوترة بعد جولة استكشافية فاشلة فوق رقبتها الملساء ، قوس كفه وكاد يضغط . كل ليلة تمر به هذه الرغبة الوحشية المدمرة حين تعزف عنه . يغتاظ من برودتها ، يغضب ، يحس بالمهانة والذل، ضغطة واحدة قوية ويهدأ ، يرتاح يطوى صفحته معها ، لن تذهب لغيره أبداً ، هو أو الموت ، الطلاق ليس وارداً . لو هجرته سيذهب وراءها لآخر الدنيا ويعيدها أو يقضى عليها .

أطلقت آهة مذعورة أزاحت أصابعه بعيداً . أخذت نفساً طويلاً . تنبهت . اعتدلت . فتحت عينيها العسليتين عن آخرهما ، رمقته بخوف . قمعت صرخة . هزته بغضب . كان يتصنع النوم . تثاءب . تساءل :

– فى إيه ؟ مالك ؟ .

– اسأل نفسك !

كانت مرعوبة . انسحبت بعيداً . شربت كوبا من الماء . تمتمت مستعيذة بآية قرآنية . نظر إلى رقبتها وكأنه لا يصدق ادعاءها . تخيل شكلها لو تمت المسألة . تخيل العالم كله بدونها . وتصور حياته أيضاً بدونها . هو يحبها . يكرهها ،يريدها . يريد قهرها وإخضاعها . كانوا يتنافسون عليها . فاز بها دونهم لأن معه الكثير من فلوس السفر . والآن لا يدرى ما حدث ؟ هل حقاً حاول خنقها . اعتذر لها بأنه كان يحلم مثل المرات السابقة . قالت له :

– الحل الوحيد أن ننام فى سريرين منفصلين ، لأن أصابعك دائماً فوق رقبتى وعليك بسؤال أهل الخبرة فى هذه المصيبة .

تصالحا تعاتبا . اطمأنت إليه مؤقتًا . استمرت بجواره لكي تتجنب ثورته . انتهز الفرصة محاولاً استردادها . تنقل بشفتيه في مواقع شتى قبل حتى كفيها . تأففت . استسمحته أن يدعها وشأنها لأنها متعبة . ابتعد عنها مرغمًا . فرحت بخلاصها المؤقت ، فاض بها من شكوكه ، فشلت في إصلاح مخه المريض . من يوم انتقالها إليه وهي مخلصة له . لم تعرف غيره ولا فكرت . هي زوجته كما أراد . صحيح أنها لا تحبه ولكنها لا تكرهه . رضيت به لأنه القادر على الزواج والجهاز والإعاشة . كل الذين تنافسوا كانوا مجرد حالمين.

استمرت معه أربع سنوات . ضحت بوظيفتها وسافرت معه لتلك البلاد البعيدة حيث يعمل معارًا . هناك ظهرت كل أمراضه حبسها في شقة ليل نهار . لا زوار ولا نوافذ . رفض توظيفها رغم المرتب الكبير المعروض ، قال لها :

– إنهم يدفعون لك كل هذا من أجلك أنت وليس لخبراتك ، وأنا أخاف عليك من الرجال . . كل الرجال .

وحين أوشكت على الاختناق . صممت على العودة . قالت بحزم حين تردد :

– الطلاق أو العودة .

عادت وعاد وراءها بعد شهور منهيًا إعارته ومضحيًابثروة! وبقى معها . . يعذبها ويتعذب . . ضرب حولها حصارًا . عارض عودتها لوظيفتها . عيونه تراقب الشرفة والنوافذ والزوار ، من يكون هذا ؟. ماذا قال ؟ فيم تفكرين ؟ ماذا تقرئين ؟ اغلقى . واربى . ولماذا هذه الأغنية بالذات ؟ . دائمًا يطالبها بكشف حساب عن الماضى ؟ من الذى أحبك ومن تمناك ومن غازلك . والذين كانوا والذين والذين . صرخت فى وجهه يومًا :

– يا أخي طهقتني في عيشتي .. طلقني وريحني وريح نفسك ..

انسحب قام يلف الشقة . حرق علبة سجائر في ساعات . شرب زجاجتي بيرة . سمع أغنية كئيبة . تأمل بإمعان صورة الزفاف . جميلة جداً . أجمل قاهرية على الإطلاق . أجمل امرأة في القارة الإفريقية كلها . كل من يراها يشهق . يجن . يحسدونه . تضايقه التعليقات حين يسيران معًا . قالوا :

– يدي الحلق للي بلا ودان .

وقالوا :

–خسارة فيه .

وغنى ولد صايع حين مرا به على كورنيش النيل :

– الغراب يا وقعة سودة .. جوزوه أحلى يمامة.

اشتبك معه . تضاربا . دائمًا يشتبك مع المعجبين . أمرضوه هؤلاء الذين لا يستحون . حتى امتنع عن الخروج معها .

عاد للغرفة لما سمع صرير النافذة . تعلقت عيناه بيدها الممدودة في اتجاه النافذة المفتوحة . لمح ظل إنسان يتوارى . مئات الاحتمالات والهواجس زحمت رأسه ، ربما تنظف أذنيها ، تعيد ترتيب شعرها ، تتثاءب ، تلعب اليوجا . كل هذه الأمور جائزة وممكنة .. لكن لماذا ضمت أصابعها وفردت السبابة ؟ لف بالسؤال من بعيد : سيمدون جسراً بين جهتنا والجهة المقابلة.. هذا ما صرح به محافظ المدينة للصحف . ردت عليه بسرعة وعصبية .

– بطل كلام فارغ ..

لو استفسرت عن قيمة هذا الجسر وجدواه . لو تروت قليلاً قبل الإجابة . لكن ردها المنفعل يضخم شكوكه بوجود ذلك الآخر المنافس الوسيم الفارس

فتى أحلام الجميلات . وهو يحاول إزاحته عن طريقه بكل الأموال المدخرة من كد سنوات الغربة ، بسخاء يشترى لها الهدايا والملابس الغالية والمصاغ والأرض يكتبها باسمها ، والمال السائل يحوله لحسابها ويتلطف معها ويقص عليها حكايات الناس ومنافسات العمل والنوادر ونكت الظرفاء . .

– سمعتى آخر نكتة . . كان مرة فى واحد . .

لا تعيره أذنًا ولا تهتم بما يقول ، أحس بوحدة قاتلة ، مدد جسده الساخن فوق سرير بارد ، دفن وجهه بين وسادتين ، بكى فى صمت ، أخذته غفوة عابرة ، حلم بالكوابيس والرجال الأوباش ، فزع ، قام مبللاً بالعرق ، وجد مكانها شاغرًا وباردًا ينادى عليها ، قام يبحث ، عثر عليها فى الشرفة جالسة باسترخاء . وهو يكره هذه الناحية من الشارع المزدحم بالرجال المتلصصين والعزاب والطلاب والدون ، ثار عليها ، زعق :

– مليون مرة قلت لك هذه الشرفة تثير أعصابى .

– وطى صوتك .

– خايفة !

– بلاش فضايح .

– ادخلى جوه .

– سيبنى .

– ادخلى .

– مش طايقاك يا أخى . . قرفانة منك .

جذبها عنوة . زغدها . أهانها . تبادلا السباب . اندفعت مهددة للمطبخ، أشياء كثيرة هناك تنذر بخطر داهم . اعترض طريقها . أخذها فى حضنه . بكت . بكى . .

– طلقنى .

- أنا غلطان .

- بقول لك طلقنى .

عاد طفلاً . صار عبداً . تذلل . استجداها . ابتاع المزيد من الأشياء الجميلة للجميلة . قالت له بحسم :

- لا أريد هذا كله ، طلقنى أو كن مثل الناس العقلاء ، ثق بى ، ليس فى حياتى غيرك ولن أجد أفضل منك كرمًا وحنانًا . . لكن عليك أن تصلح رأسك التالفة . اذهب لطبيب أو شيخ، أنت تعذبنى ، تهلوس فى نومك ، أصابعك دائمًا فوق رقبتى ، ولا خيار أمامك . . العلاج أو الطلاق لأنى صرت مرعوبة منك ولا أعرف للنوم سبيلا .

خاف من فقدها . ذهبت به لعدة أطباء نفسيين . انفرد بها آخرهم وقال لها ناصحًا :

- علاج زوجك يا سيدتى فى يدك كل هذا الجمال هو السبب ، ونصيحتى أن تتحجبى . اخفى هذا عن عيون الآخرين . تجنبى الظهور علنًا، تجنبى النوافذ والشرفات وعيون الرجال .

فعلت هذا كله ولم يتغير ، وهى تبحث عن حل غير الطلاق ، سيقتلها لو تم هذا . قال لها الطبيب المشهور أيضًا :

- أول الطريق الشفاء أن يسعى بنفسه للعلاج دون توجيه وأن يتعاطى الدواء بيده . . رغبة فى الشفاء .

فصارت تبحث عن طريق غير الطب، سألت القريب والبعيد حتى جاءت بالخبر من أخيها المقيم فى الجنوب عن شيخ سودانى مقره فى أسوان واشتهر بمداواة هذه الحالات ويقصده الناس. . من كل أرجاء مصر وبلاد العرب ، البسطاء منهم والأكابر، الجهلاء وأصحاب الدرجات العلمية الرفيعة . قال محتجًا ومعترضًا:

آخر الزمن اذهب إلى دجال .

قالت له بحسم :

- جرب هذا الباب لأن حالتك تأخرت وصرت تلف يدك كلها حول رقبتي . . اذهب إليه أو أقتل نفسي .

خاف . وافق . وصلت معه للمحطة ودعته على باب القطار . وفي المحطة التالية نزل بعد أن لعبت به الوساوس ونبشت رأسه :

- أمعقول أنها لم تجد دجالاً إلا في أسوان ؟! من تظنني هذه الشقية .

كبر الشك وصار غولاً . وحشًا . سار يجوب الشوارع منتظرًا حلول الليل . قطع الوقت في احتساء البيرة وتذكر حوادث الخائنات . الليلة سيحسم أمره معها ويصفي الحسابات المعلقة . قطع الشوارع والأحياء سيراً يرتب في ذهنه الكلمات : . . ألو . . شرطة النجدة . . حالة خيانة زوجية . لا . لا . ولماذا الشرطة . لابد من الانتقام الفوري . طاخ . . طاخ . لكن من أين يأتي الممثلون في الأفلام بالمسدسات . كلهم يطلقون الرصاص مع أن الحصول على مسدس في مدينة القاهرة من المستحيلات . لف حول المنزل عدة مرات. وقف طويلاً بجوار المدخل ، مل الانتظار ، ارتفع نبضه وهو يصعد السلالم . كاد قلبه يتوقف وهو يفتح الباب ويغلقه بإحكام . تناول من المطبخ سكينًا حاداً . وقف طويلاً أمام باب العذاب . كان النور مضاء نظر من ثقب المفتاح يرهف السمع . سمع كالحالم ضحكة رجل وامرأة . اندفع للداخل ، يدور بعينيه الباحثتين ، هي نائمة وهو يريد الآخر أولاً . يزيح الأشياء المعوقة للرؤية ، يبحث عنه بجنون داخل اى شيء وتحت أى شيء وخلف أى شيء. لا شيء . لا أحد . يعاود البحث عن دليل واحد لعقب سيجارة ، بقايا شراب ، فضلات طعام ، النافذة مغلقة وهي نائمة ولا أحد . فكيف تبخر ؟ هل تعشق جنًا أو عفريتًا ؟ . وجد بجوارها جهاز

تسجيل متوقفًا على شريط . أخرجه كان مدونًا عليه تاريخ زفافهما وهو أغلى شريط لديه . وجد أيضًا عدة رسائل مبعثرة وكلها منه إليها فى أيام السفر . يا إلهى . . أكانت تستعيد ذكرياتها معه ؟ انحنى ليقبلها معتذراً . وجد رسالة موضوعة بعناية على الكومدينو . ووجد علبة (فلانيل) فارغة. قرأ الرسالة بيد مرتعشة :

- (أيها الظالم ، لا فائدة منك ، كنت على يقين أنك لن تسافر . . قرأت هذا فى عينيك وعثرت على معظم علب العلاج فى أدراجك . . كنت تغشنى ولم تتناول العلاج أبداً ، ولمحتك من المغيب وأنت تحوم حول البيت. . الله يسامحك) .

ينحنى عليها باكيًا ويضع أذنه فوق قلبها . سمع دقات خافتة . أحلى وأغلى دقات سمعها فى حياته كلها . يصرخ ينادى على الناس :

- الحقونى. . النجدة .

- لا يطيق انتظاراً يحملها فوق كتفه وينزل السلالم ركضًا . يجرى بكامل سرعته عبر شارع خال وساكن . . يجرى باحثًا عن منقذ .

الفهرس

من قائمة الإصدارات الأدبية

رواية .. قصة

العنوان	المؤلف
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
لا أحد يحبك	أماني فهمي
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطربة الغروب	جمال الغيطاني
دموع إيزيس	حسني لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازي
الحب والتتار	خالد عمر بن ققه
أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن ققه
يومية هروب	خيري عبد الجواد
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب اطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد تمنم	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
الطريق والعاصفة	رأفت سليم
في لهيب الشمس	رأفت سليم
اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
أنا كنده	كيروجا ترجمة : رزق أحمد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق
جسد في ظل	عبد النبي فرج
الفوز للزمالك والنصر للأهلي	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــد	عبده خال
صعيدي صُح	د. عزة عزت
الشاعر والحرامي	عزت الحريري
في انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيري
إينارو	د. علي فهمي خشيم
تحولات الجحش الذهبي	لوكيوس ابوليوس ترجمة د.علي فهمي خشيم
سراديب	عفاف السيد
الزجاج المكسور	د . غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحي سلامة
يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوي
وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
حب وظلال	كوثر عبد الدايم
ترانزيت	ليلى الشربيني
مشوار	ليلى الشربيني
الرجل	ليلى الشربيني
رجال عرفتهم	ليلى الشربيني
الحلم	ليلى الشربيني
النغم	ليلى الشربيني
الخرابة 2000	محمد الشرقاوي
كوميديا الإنسجام	محمد بركة
أشياء لا تموت	محمد صفوت
الحاج	محمد عبد السلام العمري
بعد صلاة الجمعة	محمد عبد السلام العمري
الخروج إلى النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتي الساخنة	محمد محي الدين
الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
الهروب مع الوطن	ممدوح القديري
نسيج الأسماء	منتصر القفاش
ثلاث حقائب للسفر	منى برنس
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
ديسمبر الدافئ	هدى جاد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
فرد حمام	يوسف فاخوري

شعر ..

أول الرؤيا	إبراهيم زولي
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولي
قصائد حب من العراق	البياتي وآخرون
بدلاً من الصمت	درويش الأسيوطي
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطي
تماماً إلى جوار جثة يونسكو	رشيد الغمري
كأنها نهاية الأرض	رفعت سلام
الألوان ترتعد بشراهة	شريف الشافعي
صلاة المودع	صبري السيد
دنيـــا تنادينـا	طارق الزياد
تلف	ظبية خميس
البحر . النجوم . العشب في كف واحدة	ظبية خميس
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافي
حواديت لفندي	عصام خميس
سيرة الماء	د . علاء عبد الهادي
راتب الألفة	علوان مهدي الجيلاني
إضاءة في خيمة الليل	علي فريد
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوي
إذهب قبل أن أبكي	د . لطيفة صالح
الغربة والعشق	مجدي رياض
مشاعر همجية	محسن عامر
غربة الصبح	محمد الفارس
وَنَس	محمد الحسيني
ليالي العنقاء	محمد محسن
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لي	نادر ناشد

مسرح ..

هذه الليلة الطويلة	د.أحمد صدقي الدجاني
اللعبة الأبدية (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
ملكة القرود	محمود عبدالحافظ

دراسات ..

هاجس الكتابة	د أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د أحمد إبراهيم الفقيه
الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية	أحمد الأحمدين
قراءة المعاني في بحر التحولات	أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
اللغة والشكل	أمجد ريان
المثقفون العرب والتراث	جورج طرابيشي
ثقافة البادية	حاتم عبد الهادي
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني	خليل إبراهيم حسونة
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعونية	سليمان الحكيم
البعد الغائب : نظرات في القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
رواد الأدب العربي في السعودية	شعيب عبد الفتاح
الكتابة المشروع	شوقي عبد الحميد
رحلة الكلمات	د . علي فهمي خشيم
بحثاً عن فرعون العربي	د علي فهمي خشيم
أعلام من الأدب العالمي	علي عبد الفتاح
هيمنجواي حياته وأعماله الأدبية	د . غبريال وهبة
زمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة	مجدي إبراهيم
في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغني
أدب الطفل العربي بين الواقع والمستقبل	ممدوح القديري
الرواية العربية رسوم وقراءات	نبيل سليمان

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - تراث - أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

المؤلف

إدريس على محمد

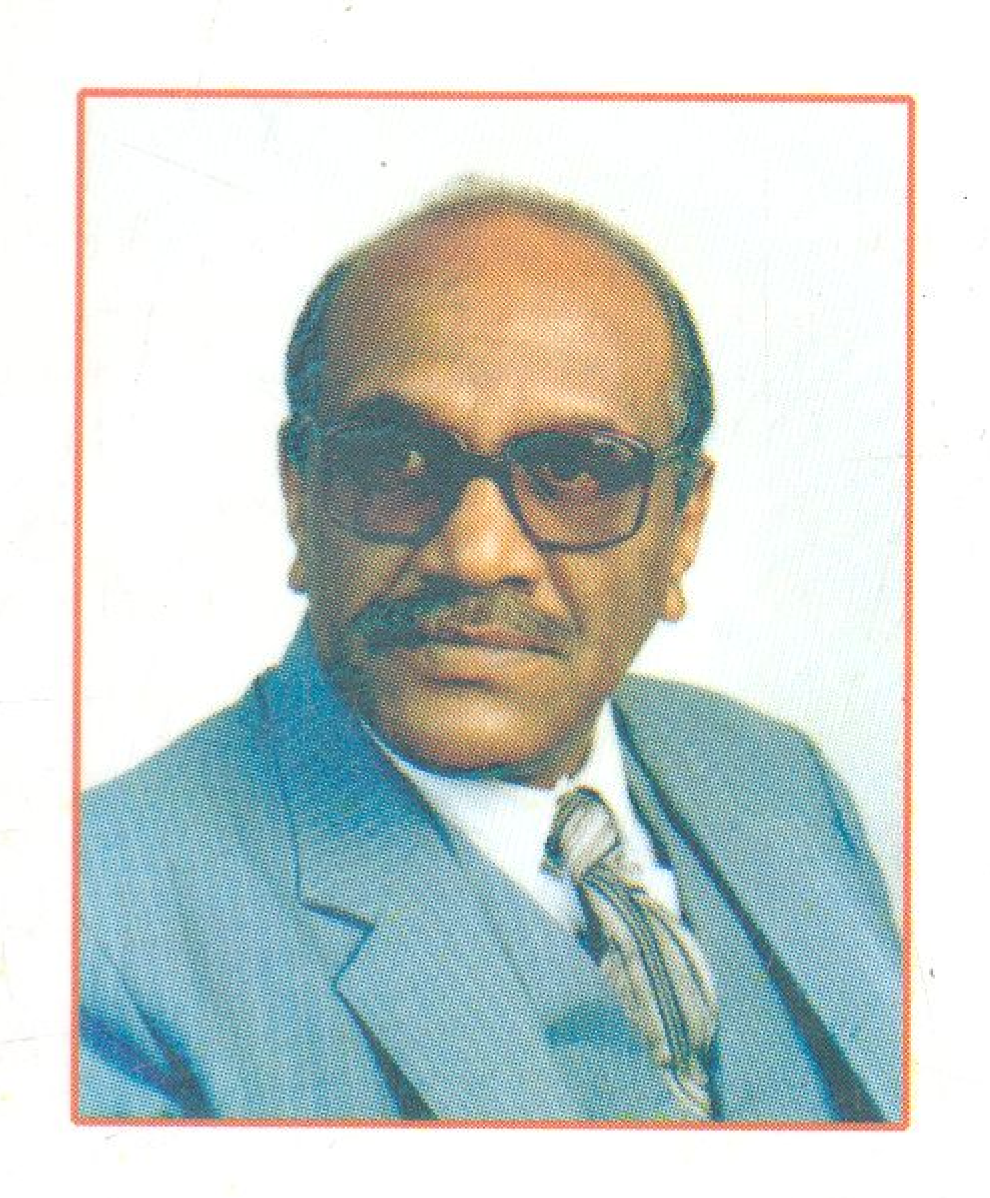
* عضو اتحادالكتاب
* عضو نادى القصة
* حاصل على الجائزة الأولى من جامعة اركنساس بالولايات المتحدة عام ١٩٩٧ عن ترجمة رواية دنقلة للانجليزية .
* حصل على جائزة أفضل كتاب صدر عام ١٩٩٨ من معرض القاهرة للكتاب عام ١٩٩٩ فى مجال الرواية (رواية انفجار جمجمة)
* درع الثقافة الجماهيرية من مؤتمر القاهرة الأدبى الأول عام ١٩٩٩ .

مؤلفاته :

- المبعدون قصص
- واحد ضدالجميع قصص
- دنقلة رواية
- وقائع غرق السفينة قصص

تحت الطبع :

- النوبى رواية



يا غبى لقد غاب عنك ماضى الرجل وخريجو
دفعتـه الذين منهم الجنرال الوزير المحافظ ،
السفير، النائب ، ونسيت عائلتـه .. عائلة
الجنرالات فى الجو والبحر والبر والمزروعين فى
كافة المواقع ، ونسيت ابن عمه المتربع فوق رأس
أهم وأخطر الأجهزة الرقابية ، والذى بوسعه
إحصاء عدد دقات قلبك وأنت فى غرفتك
الحصينة ، وكشف عورتك وأنت بكامل ملابسك ،
ونسيت الجنرال علوان الرهيب ، ونسيت الباشا
نفسه والذى تغلغل واخترق كافة المجالس
التشريعية والتنفيذية والسلطة الرابعة ومنظمة
حقوق التعساء والكونجرس والأمم المتحدة
والنقابات ، بحكم ما كان . وسيكون . كيف إذن غاب
عنك هذا كله واندفعت ببلاهة إلى عرين الأسد
بقدميك ؟!

